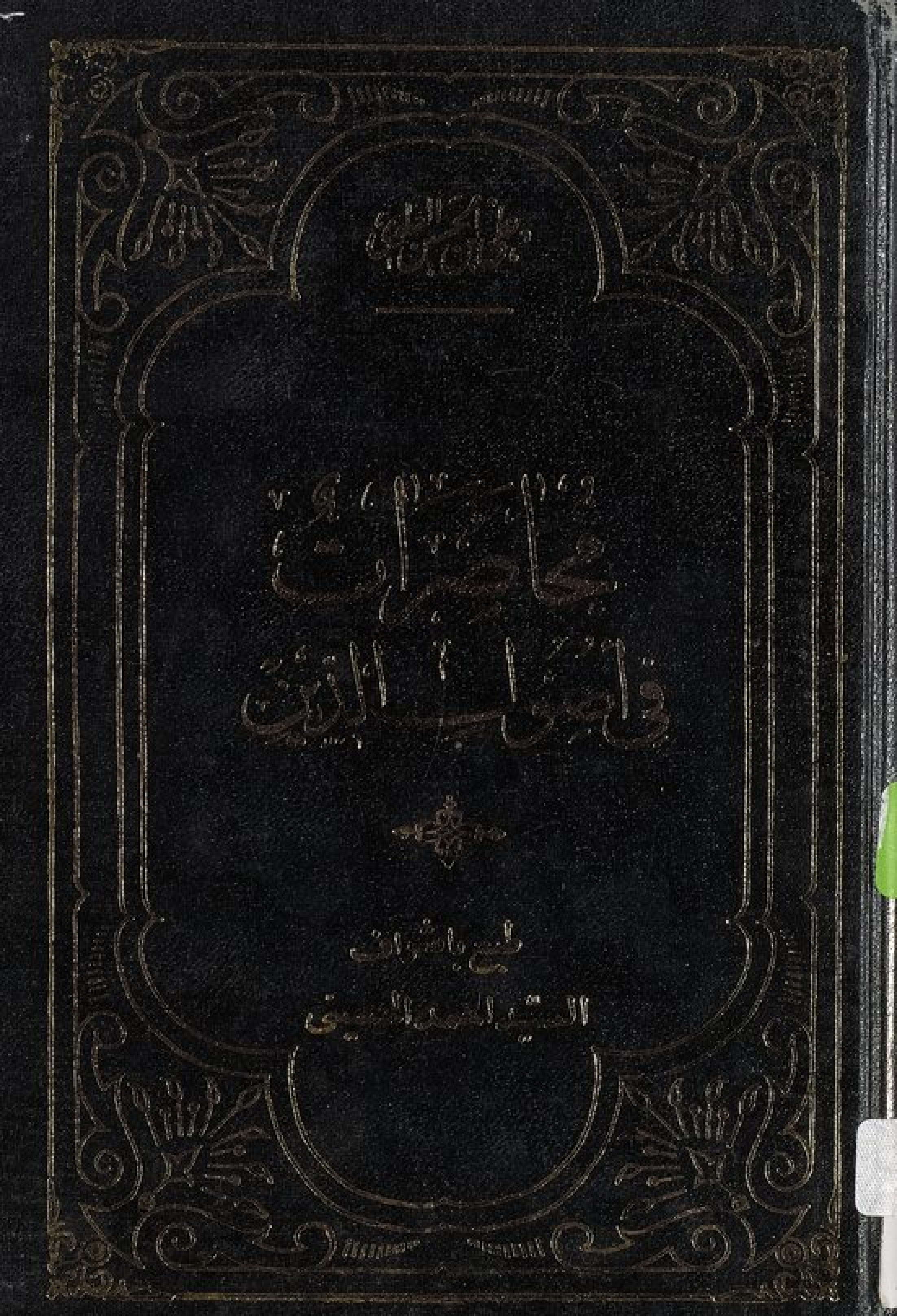
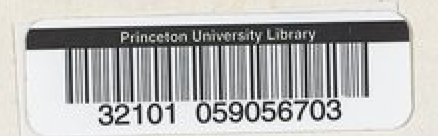
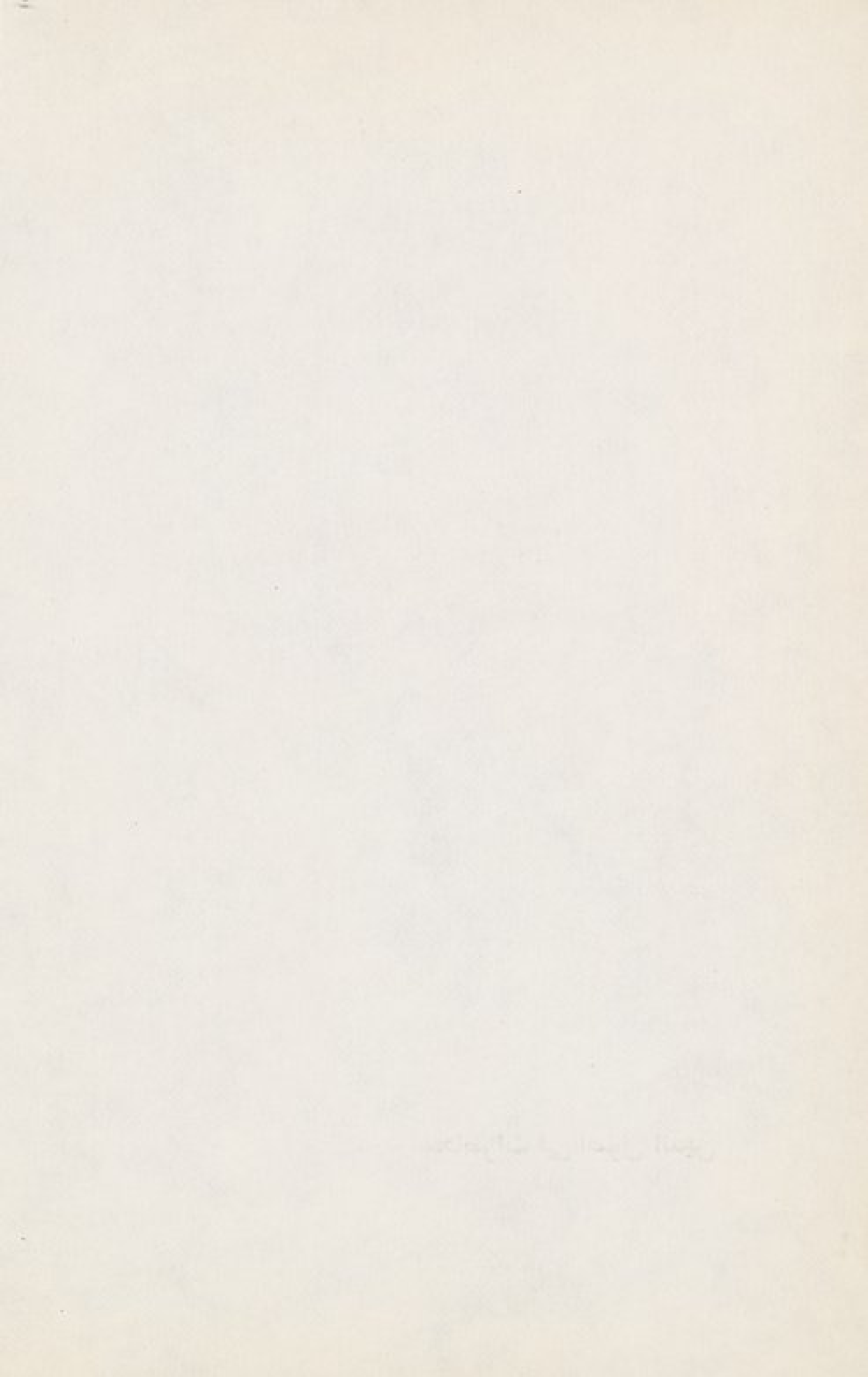

محاضرات
في أصول الفقه


Princeton University Library
32101 059056703

محاضرات فى اصول الدين



calawī



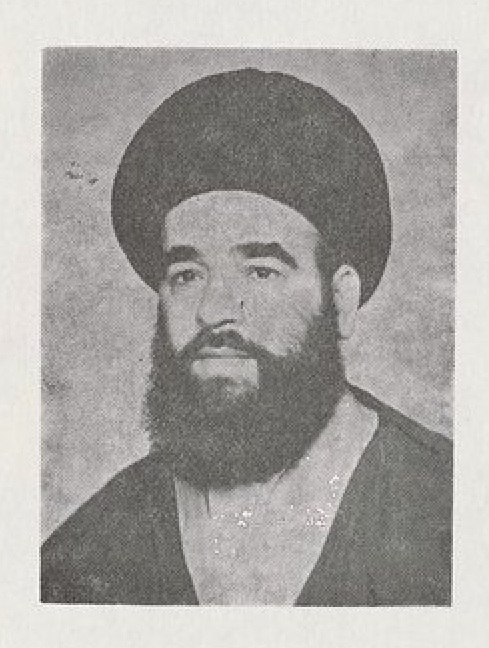
طبع باشراف
السيد احمد الحسيني

منشورات

((مكتبة الامام علي بن الحسين (ع) العامة))

مطبعة مهراستوار - قم

١٣٩٢ - ه



الاهـداء

الـى :

* من يطلب النجاة بعد أتعاب الجهل .
* الناشئـة المثقفـة المتحفزة .
* القلوب المتفتحـة .

أهدي هذا المجهود المتواضع

« العلوى »



الحمد لله رب العالمين ، بارىء الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

كلمة المكتبة

ابتلينا في عصرنا هذا بداء التشكيك .

نشك في كل شيء ، نشك فيما يصلحنا ، بمفاهيمنا ، بأنفسنا ، حتى بوجود الله تعالى ـ والعياذ بالله ـ .

ومثل هذا الداء لا يشفى الا على يد من له الخبرة ؛ وخلوص النية ؛ وطهارة القلب ؛ ما يؤثر في النفوس ؛ وهو ما نراه في شخص سيدنا العلامة الحجة السيد العلوي .

وكم سمع من أحد اساتذته ومربيه ـ آية الله المغفور له السيد اسماعيل الصدر قدس سره ـ مؤشراً اليه قائلا : ان هذا السيد أطهر من قطر السماء .

هذا ما يؤهله للقيام بمثل هذه الاعباء .

لذا قام سيدنا المفدى ، بالقاء محاضرات في أصول الدين للاخذ بيد الناشئة ، وانتشالهم من هوة التشكيك ، وسيرهم على النهج الانساني القويم .

وقدقامت مكتبتكم (مكتبة الامام علي بن الحسين «ع» العامة) بنشر هذا القسم من المحاضرات ـ وهو قسم التوحيد ـ وتليها الاقسام الاخرى

ـ انشاء الله ـ راجية بذلك رضوان الله تعالى ، وفائدة الجميع .

وقد تفضل الاستاذ الفاضل السيد عبد الستار السيد درويش الحسني بتلخيص ترجمة سيدنا المؤلف الضافية من كتابه القيم « القول الحاسم في أنساب بني هاشم » ، ونحن اذ نضع هذه الترجمة في أول الكتاب نقدر السيد الحسني في جهده ونسأل الباري له التقدم والتوفيق ، والله تعالى من وراء القصد .

عبد الهادى الجورانى

ترجمـة المؤلف

العلامة النحرير المجاهد الحجة السيد علي بن الحسين بن ميرزا ابن ابي القاسم بن عبد الرزاق بن جلال بن كمال بن جمال بن علي بن فخر الدين بن اسماعيل بن مرتضى بن فخر الدين محمد بن امير بن عماد بن معين بن شمس الدين بن امير بن شمس الدين بن مرتضى بن علي بن فخر الدين بن محمد أبي الفضل بن ابى القاسم علي نقيب الري وقم ابن عز الاسلام محمد بن ابى الحسن نقيب النقباء المطهر بن أبي الحسن علي الزكي نقيب الري المذكور في عمدة الطالب بن ابى الفضل السلطان محمد الشريف بن ابي القاسم علي نقيب قم بن ابي جعفر محمد بن حمزة القمي بن احمد الرخ بن محمد بن اسماعيل ابن محمد الارقط بن عبدالله الباهر بن الامام زين العابدين وسيد الساجدين علي بن الحسين بن علي بن ابى طالب عليهم السلام .

نسب كأن عليه من شمس الضحى

نوراً ومن فلق الصباح عمودا

مولده :

ولد سيدنا العلوي دام ظله في الثاني من شهر محرم الحرام سنة ١٣٤٦ هـ المصادف ١٩٢٧/٦/٢٣ م ، والموافق ١٣٠٢/٤/٢ شمسي ،

فنشأ وترعرع بين أحضان الفضيلة ، وبرعاية والديه الجليلين تعلم في المكتب (١) القرآن الكريم والكتابة ، وذلك الى سنة ١٣٦٥ ﻫ على التقريب مع مواكبته دروس النحو والصرف والبلاغة والمنطق والكلام والفقه والاصول وغير ذلك من العلوم الدينية والاجتماعية .

وقدكان الى جانب ذلك كله له ميل لنظم الشعر منذ الصغر ، لكنه طفق ينظم الشعر الشعبى من بداية سنة ١٣٧٠ ﻫ حيث عاد أصحاب موكب الامامين (موكب الكاشانيين سابقاً) في الكاظمية الى تشكيل موكبهم بعد أن ُمنعت عامة المواكب الحسينية لمدة مديدة .

وهذا السيد الجليل من العلماء المجاهدين . قال تعالى (فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) لا تأخذه في الله لومة لائم ، وقد تعرض بسبب ذلك لضروب من الاذى والاضطهاد ، فسجن سنة ١٣٨٢ ﻫ لقراءة قصيدة شعبية له ، ألقيت في احدى المواكب ، وقد تعرض فيها للوضع المنحرف عن جادة الاسلام في العراق آنذاك ؛ وذلك في الليلة السابعة من محرم الحرام من نفس السنة .

---

(١) المكتب : ويسمى الشيخ ، هو معلم يعلم الاولاد فى احدى غرف الصحن الكاظمى المقدس .

الهجرة :

وللسيد دام مجده نفس طموح تأبى الوقوف عند حد ، ولسان حاله ان لم يكن لسان مقاله :

اذا مر بي يوم ولم اتخذ يداً ولم استفد علماً فماذاك من عمري

ولذلك هاجر من الكاظمية المقدسة مسقط رأسه وموطن آبائه الى النجف الاشرف معهد العلم والعلماء ، وذلك سنة ١٣٨٦ هـ ، لاتمام دراسته هناك على عدة من استاذة اكفاء .

ولعلمه وفضله انتدبه سيدنا المغفور له المرجع الديني الاعلى الامام الحكيم طاب ثراه في ١٣٨٧ هـ ليكون ممثلاعنه في بغداد ، المشتل ، حي طارق ، المنطقة الاولى ، حيث تعينت له امامة الجماعة فيه ؛ وكان قبيل ذلك نائباً عن سماحة آية الله المغفور له السيد اسماعيل الصدر في الكاظمية ـ جامع الهاشمي ـ حيث كان ثمة مدرس وامام جماعة .

اساتذته :

منهم : سماحة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ الحامد الواعظي دام ظله ، وسماحة آية الله المجاهد المغفور له السيد اسماعيل الصدر اعلى الله مقامه، وفضيلة الاستاذ الحبرأحمد أمين صاحب كتاب (التكامل في الاسلام)رحمه الله ، وسماحة العلامة المجتهد آية الله السيد جعفر

المرعشي دام ظله ، وسماحة آية الله الحجة الشيخ محي الدين المامقاني دام ظله ، وآخرين جزاهم الله خيراً .

بعض المنجزات التى اضطلع بها سماحته :

لقد خطط سماحتــه في ذهنه مشاريع ، وجعلهــا مورد التنفيذ ، الواحدة تلو الاخرى ، فتم بعضها والبعض الاخر في طريقه الى الاتمام انشاء الله تعالى .

فمنهــا :

١ ـ تأسيس موكب حسيني باسم (موكب حي طارق)

٢ ـ بناء جامع باسم (الجامــع العلوي) الذي ابتدأ ببنائــه في ١٠ رجب سنة ١٣٨٨ هـ وتلحق بـه حسينية ، ومدرسة العلوي الدينية ، المؤسسة سنة ١٣٧٦ .ومكتبة عامة باسم :

(مكتبة الامام علي بن الحسين« ع » العامة)

مؤلفاتــه :

للسيد العلوي أطال الله عمره مؤلفات قيمة في مواضيع مهمة لم يسبق اليها ، وقد طبع بعضهـا وينتظر البعض الاخر الفرصة للطبـع ، وهــي :

(الكتب المطبوعة) :

١ ـ العمل الجهادي

٢ ـ الفارق

٣ ـ الكلمة الطيبة

٤ ـ زكاة الفطرة

٥ ـ اختر لنفسك

٦ ـ الأصول الثلاثة

٧ ـ محاضرات في أصول الدين (هذا الكتاب)

٨ ـ يادآورى (فارسى)

٩ ـ مخطط كتاب الارث

١٠ ـ رستگاران (فارسى)

١١ ـ سوداگرى (فارسى)

١٢ ـ پيك رحمت

(الكتب الجاهزة للطبع) :

١ ـ العفاف على مذبح التبرج

٢ ـ دروس وحلول في شرح كفاية الاصول

٣ ـ تفسير الامام الصادق (ع)

٤ ـ ديوان العلوي (شعر شعبي)

٥ ـ مقتطفات العلوي (شعر قريض)

٦ ـ الخير والسعادة

نظم الشعر :

وقد نظم سماحة سيدنا العلوي الشعر ، وبلغ فيه شأواً بعيداً وفاق الاقران ، واذا سمعت له قصيدة لا يسعك الا ان تهتز طرباً وقد تذهب بك العاطفة كل مذهب (ولاينبئك مثل خبير) . وحقاً فان الشعر اذا لم يكن كذلك فلا خير فيه . وقد قال الشاعر :

اذا الشعر لم يهزك عند سماعه فليس جديراً أن يقال له شعر

وفيمايلي نقدم نماذج للمطالعين الكرام ليعلموا ويروا كيف يعمل العلماء العاملون ، اذ انهم لا يدعون اصغر مجال للخدمة الا وقاموا على قدم وساق ليأخذوا بيد البشرية الى شاطىء السعادة .

لذا تقلدوا مقاليد القيادة الروحية ، وتمركزوا في سويداء القلوب الخيرة ، وعاشوا بين جوانح الشعوب معززين مكرمين .

« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » (١٤٢ : آل عمران)

« والله عنده حسن الثواب » (١٩٦ : آل عمران) .

قال : في مطلع قصيدة يحاكم فيها بعض الرؤساء السابقين ، عنوانها (الحكم والحساب) :

قف كي نحاسب في جد ونحتكما
الى متى ننبذ الأخلاق والذمما

وقال في نشيد للشباب عنوانه (الجهاد) :

نحن فتيان جنود نحن أبطال أسود
كلنا عزم صمود يوم قمعنا الفساد
الجهاد الجهاد

وقال في قصيدة عنوانها (الداء والدواء) يصف الداء ثم يأتي بالدواء بشرط التزام الامة به :

حار الحجا من ينصر الاسلاما من للعقيدة يرفع الاعلاما
من ذا يضحى بالنفيس ونفسه كي يحفظ القرآن والاحكاما
من ذا يكون طبيب أمته ومن يأتي يداوي الجرح كي يلتاما
صعب العلاج أما ترى من ضامن يشفى الغليل ويبرىء الاسقاما
كم نحمل الارزاء في الدنيا وكم نرجو الزمان ونرتجي الاياما
الله أكبر ما رأينا أمة صبرت ، ومنه تحملت آثاما

الى أن قال :

الداء داء الجهل أين دواؤه قد دام فينا داؤنا ، قد داما

وأخذ يصف الامراض الاجتماعيـة من التفرقة والغفلة والنفاق وغير ذلك ثم قدم العلاج بقوله :

الطب دين محمد وعلومه والوصفة القرآن خذه مراما

والواصفون هم الذين تبينوا سر الشفاء ، وحققوا الاحلاما

علماء دين الله ، حفاظ لمـا قدجاء فيـه ؛ مبددوا الأوهاما

. . . الى آخره .

وفي قصيدة ينبه الامة ان لاتسير على السراب ، وان تأخذبالقول الصادق الحسن ، وعنوانها (أحسن القول) يقول فيها :

خذ من القـول خيره لتنالا خير ما فيـه ولتفيض كمالا

واترك الشر والبـذيء لئلا تهلك النفس حاضراً ومآلا

. . . الى آخره .

ثم يدفع الرجل المسلم الى السير قدماً ، والى اشتداد العزيمة ، وعدم المبالاة بالاخطار في سبيل الوصـول الى الغاية القصوى ، وهي حاكمية الاسلام في الارض ، وذلك في القصيدة المعنونة بـ(سر) :

ان رمت ترقى سلم الاكبار فاختر لنفسك مركب الاخطار

سر لاتعيقك في المسير عوائق واعزم ، فلا يجديك قول حذار

. . . الى آخره .

وهنا تراه يوقظ قومه ليروا كيف ينهبهم الاستعمار الكافر ، حيث

يقول في قصيدة عنوانها (مولد الحق) :

دعني اقول ، ففي الأقوال اخبار ... واترك فمي ، ففمي تمليه اسرار
دعني اسير ، فمافي السيرمن حرج ... حتى اذا بظلام الدرب أخطار
دعني أنبه قومي عن رقودهم ... من حيث رقدتهم بين الورى عار
حل الكرى بهم حتى اللصوص أتت ... تغزو الديار ولا في الدار ديار

. . . الى آخره .

وماتراه الا ثائراً على الطائفية المقيتة حيث يصب عليها غضبه ونقمته ، في القصيدة العصماء ؛ عنوانها (الطائفية) :

الطائفية فرقة وشرور ... وأصولها عصبية وغرور
الطائفية لا يفي بشئونها ... الا ظلوم جاهل مغرور
الطائفية والنفاق قسيمها ... صنوان تحتهما ينمى الزور

الى أن يقول :

ياصاح قل للمغرمين بذا الهوى ... الطائفي منافق مأجور

. . . الى آخره .

وهكذا الشاعر الحر يعيش آلام أمته فيشكو همه في قصيدة عنوانها (هذه نفثة) :

كم صبرنا وقد دهت أرزاء ... وعلى العين سحبة دهماء

الى أن يقول:

هذه نفثة اليك امام العـ صر فالجور ضاق منه الفضاء

... الى آخره .

وعلى هذا المنوال يدخل في جميع مسالك الشعر من : التاريخ والحماسة والرثاء وغيرذلك ، ويخرج منها متوجاً بتاج التفوق والظفر .

وله ـ أدامه الله تعالى ـ فضل كبير على المواكب الحسينية ، حيث كان ومازال يجهز بعضها ما تحتـاج من الشعر الشعبي أو القريض الى ماشاء الله . ومن أراد المزيد منهـا فليتصفح مؤلفاتـه فهي مثبتة فيهـا ، وليطالع (ديوان العلوي) شعر شعبي و (مقتطفات العلوي) شعرقريض .

متعنا الله بطول بقائه والارواء من منهله .

بين يدى العلامة العلوى

تصاعد بابن فاطمـة قتـام وزال بنـور غرتـه الظلام

هو البحر الخضم يفيض علماً وجود يديه في الدنيـا سجام

شآى أقرانه فضـلا فقالوا « علي بن الحسين » لنـا امام

له همـم تعالت عن نظير ومجـد قد تسامى ، لا يرام

نمته الى العلى ؛ عليـا نزار فهـا هو عيلم قرم همـام

زكي بنجـاره وسمى بخلق كمـا قد ساد آباه العظام

اذا عد الكرام فهم عيـال عليـه وان تعاظمت الكرام
ودونك ان عجبت مؤلفـات وآثاراً بهـا انتفـع الانـام
فذا «التخطيط في الميراث» بحر ولكن اين من في البحر عاموا
وذا «اختر لنفسك» جاء وحياً فليس يفـي بوصفتـه كلام
وما كان «العفاف» سوى دروس اذا تليت على الحكماء قاموا
وهـل تفسيره القرآن الا عقود زاد رونقهـا انتظـام
تباعد فالسمـاك لـه مدار ودانى في القلـوب له مقـام
تملك لبـه حب المعـالي فأدرك ، لا السلافة والمـدام

عبد الستار الحسنى النسابة

سموت سماء العلى للعلى

تسلمنا من الاستاذ الشاعر المرهف الشعور السيد نعمة البعاج هذه القصيدة الرائعة التي تفضل بارسالها الينا من الديوانية ، ونحن اذ نثبتها هنا نشكره على ما تفضل به :

« العلوى »

أبا عـادل يا ربيب الحجى ... ويا من سلكت سبيـل الرشاد
ويا من بدأت تنقي القلـوب ... وتغسل عنهـا نقـاط السواد
فأنت طبيب القلـوب التـي ... بهـا قـد توغـل داء الفسـاد
وانت المجاهـد عبر الحياة ... لـذلك تندبنـا للجهـاد
وغرسـك في صقعنـا مثمـر ... ومنـه اجتنينـا ثمـار السداد
ووعظك لمـا نجـد مثلـه ... واكرم بوعظ يلين الجماد

* * *

فنحن الظمايا وانت الروى ... وكم قد عذبت وارويت صاد
فسـر في طريقـك لا تنثني ... فأنت لبيت العلى كالعماد

ومن سار خلفك يابن الحسين يفوز ويحضى بنيل المراد
فهذي الجروح بأكبادنا وما من سواك يجيد الضماد

* * *

ونحن نصد بك المعضلات فأنت السلاح وأنت العتاد
سموت سماء العلى للعلى وخصك بالفضل رب العباد
غزوت الفضيلة في وكرها وحزت مزايا تفوق العداد
يخلد ذو العلم طول المدا وغير ذوي العلم شبه الرماد
وشتان ما بين هذا وذا فذاك بواد وهذا بواد

* * *

فليس الجواهر مثل الحصا وليس البياض شبيه السواد
وليس البزات مثيل البغاث ولا النحل في شكله كالجراد
رعاك الاله بألطافه وخصك بالطيبات الجياد
عليك تحيات من مخلص يراعي الاخاء وحق الوداد
ولا أبعد الله ما بيننا ولا صوّب الدهر سهم البعاد

سيدنا الجليل العلامة الورع دام ظله

هذه بضاعتي المزجاة أهديها لمقامكم السامي وهي كالمهدي الى السيل قطرة أو الى البحر درة أو كناقل التمر الى هجر ، وسلامي لمن حواه مجلسكم ويحضر بخدمتكم ونرجو الدعاء ودمتم .

المخلص

نعمة السيد حسون البعاج

بسم الله الرحمن الرحيم

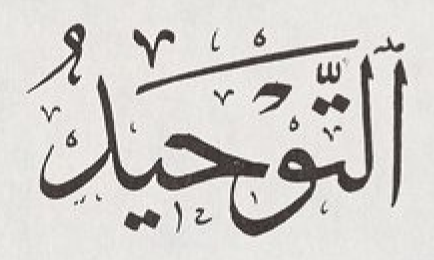
الحمد لله واجب الوجود ، الذي لا يبلغ كنه ذاتـه عقل من في الوجود ، الرفيع المتعالي عن أن تدركه الافهام ، أو تحيط بحد صفاته الاوهام . والصلاة والسلام على خيرخلقه محمد سيد الانام ، وعلى آله وعترته الكرام . واللعنة الدائمة على أعدائهم اللئام ، مر الدهور والايام.

اما بعد :

فانا قد عزمنا بحول الله وقوتـه على اقامـة مجلس اسبوعي ، وابتدأنا بهذه الجلسة الميمونة ـ التي نتوخى منها كل خير ـ في هذه الليلة الشريفة ، وهي ليلة الجمعة السابعة عشرة من جمادى الاولى سنة ١٣٨٧هـ .

والغرض من تكوين هذا المجلس الديني هـو القاء محاضرات في أصول الدين ، عسى أن ينفعنا يوم يقوم الناس لرب العالمين .

الاصل الاول :



تمهيد

لما خلق الله تعالى الانسان خلقه مفطوراً على التدبر والتفكير .

وتوضيح ذلك : ان الانسان ـ كما يقول المنطقيون ـ خلق من جزئين ، جزء هو الحيوانية وجزء هو الناطقية ، وفسروا الناطق بالمدرك ، والانسان لا يدرك المدركات الا بالفكر ، ولذا يقال : ان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان مفطوراً على التفكير .

ولما خلق الانسان هكذا ـ ونعني انه مفطور على التفكير ـ كان من شأنه ان يفكر . فأخذ يفكر من يوم عرف نفسه ، حتى أصبحت أفكاره مجموعة مذاهب ونظريات عامة ، ومن جراء هذه الافكار تكونت عند البشرية نزعتان : نزعة حسية مادية ؛ وأخرى عقلية مثالية .

النزعة المادية :

ومعناها أنها ـ أي هذه النزعة ـ هي مصدر الاتجاهات الفكرية ، والنزول بالعقل (١) الى عالم الحس والوجود الحسي . يعني ان هذه النزعة كونت عندالانسان اتجاهاً جعلته لايؤمن الابمايحس ؛ وبمايجده شاخصاً أمامه ، فصاحب هذه النزعة لايؤمن الا بالمادية فقط .

---

(١) العقل لغة : هو الفهم .

النزعة المثالية :

ومعناها أنها تبحث في الانسان ؛ يعني تبحث في مادة الانسان من أي شيء هو كائن وصائر، تبحث في المبدأ والمعاد، تبحث عن العوارض التي تعرض على الانسان . ومعنى العوارض أن هناك أشياء ليست من ذات الانسان ، وانما هي خارجة عن ذاته ولكنها تعرض عليه . وهؤلاء أصحاب النزعة المثالية ، أرجعوا هذه النزعة المجردة الى عالم الغيب(١) .

ومن الطبيعي أن هاتين النزعتين لهما أثرهما الخاص في المجتمع الانساني بلا شك ، كما لا شك أيضاً أن لكل من هاتين النزعتين أنصاراً يحمونهما ويدافعون عنهما .

هدف الانسان :

ما الهدف في هذه النزعة وتلك ـ المثالية والحسية ، أو قل : الروحية والمادية ؟ .

لاشك ولاريب أن هاتين النزعتين تحاولان الوصول الى الكليات الموجودة . وبعبارة اخرى : تريدان معرفة الكليات في الموجودات وجزئياتها .

وهناك أمر آخر تدعو النزعة اليه ، وهو أيضاً معرفة اللانهاية في

(١) محصل ماجاء فى مباحث علم الكلام للطريحى .

الفضاء والنفس وواجب الوجود . وبعبارة أوضح : انها تريد الوصول الى مبدأ الفضاء ، ومبدأ النفس والوصول الى معرفة واجب الوجود .

ثم ان هذه النزعة ـ بما فيها من محاورات ومحادثات ومجادلات ومناقشات ـ كلها كانت قبل ظهور الاسلام العظيم ، ولما جاء الاسلام جاء أولا وبالذات لتحرير الفكر البشري ، والجمع بين المادة والروح ، وأوجب التفكر في ملكوت السماوات والارض « أولم ينظروا في ملكوت السماوات والارض » (١) ؛ والنظر هو الدافع للتفكر « قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلاتتفكرون » (٢) كما أن الاسلام جاء لاصلاح شؤون الانسان جميعها .

وبعد ظهور الاسلام وانتشاره أخذت الفلسفة الاسلامية تنمو بصورة هائلة ، وكانت تدور أهم مباحث هذه الفلسفة الجبارة حول : واجب الوجود ، ووجوب بعث الأنبياء ، والثواب والعقاب في الآخرة . وهذه النقاط الثلاث هي التي تسمى بـ« أصول الدين » عند العامة ، وأما عندنا فمعها العدل والامامة ، والأخيرتان تسميان بـ« أصول المذهب ».

وبعد هذا كله أخذت المناورات السياسية من قبل اصحابها ـ أي السياسيين في عصرهم ، ونقول « السياسيين » على المعنى المصطلح والمفهوم الذي انتخبه السياسيون أنفسهم ، وهو مفهوم المكر والحيلة

---

(١) سورة الاعراف : ١٨٥ .

(٢) سورة الانعام : ٥٠ .

والخداع ، لا على المفهوم اللغوي الذي هو ادارة شؤون الامة ، لان المفروض فيمن أراد ادارة الشؤون أن لايحارب الفضائل للبقاء على دست الحكم .

والحاصل : ان هذه المناورات اخذت تلعب دورها بشكل مريب ، تتوخى القضاء على روح الفلسفة الاسلامية الجبارة .

وكان هناك أغراض عدائية أخرى بالنسبة الى الاسلام ، وجهت كلها ضد الاسلام وفلسفته . وهذه المناورات والاغراض العدائية كانت تنفذ في صميم الاسلام عن طريق الفلسفة ، فصارت سبباً لنشوء « علم الكلام » .

علم الكلام :

وعلم الكلام هذا هو الجامع بين الأدلة العقلية والنقلية ، أي انه يجمع بين الذي يقره العقل وتذعن له النفس . وبين ما جاء عن طريق النقل والسمع .

تعريف علم الكلام :

وعلماء الكلام اختلفوا في تعريف هذا العلم ، ونحاول هنا ان نوضح صورة مصغرة عما قالوه في تعريفه :

قالوا « هو علم تقرير أصول الدين بالفلسفة والأدلة العقلية التي

قاعدتهــا المنطق » (١) . قولهم « قاعدتهــا المنطق » لانهــا تستند على صغريات وكبريات ونتائج .

مثال من الشكل الاول :

الصغرى : « العالم متغير » .

الكبرى : « وكل متغير حادث » .

النتيجة : « فالعالم حادث » .

وفي هذا العلم عندنا بيــان الأراء والمعتقدات التي صرح بهــا الاسلام ، سواء كانت عقلية أو نقلية ، أي سواء كانت بالحجج والبراهين والادلة العقلية ؛ أو كانت عن طريق القرآن الكريم والسنة الشريفة ـ قولا وفعلا وتقريراً ـ وهو قول النبي والائمة الهادين عليهم السلام وفعلهم وتقريرهم .

موضوع علم الكلام :

واختلف علماء الكلام مرة ثانية في موضوعه ، فالمتقدمون منهم قالوا « موضوعه هو ذات الله تعالى وصفاته » وقيل « هو الموجود من حيث هو موجود » .

وأما المتأخرون فقالوا « هو المعلــوم من حيث يتعلق بـه اثبات

(١) مع اعتبار انسجامها مع الادلة النقلية .

العقائد الدينية تعلقاً بعيداً أو قريباً » .

الفلسفة :

ان أصل الفلسفة ومبدأها ـ كما قال أبو الفتح الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » ـ هي من الروم (١) ، وغيرهم كالعيال لهم .

معنى الفلسفة :

الفلسفة هي كلمة يونانية مركبة من كلمتين ، هما « فيلا » أي المحب ، و « سوفا » اي الحكمة ، فمعناها « محب الحكمة » .

تعريف الحكمة :

الحكمة عقلية وعملية :

(الحكمة العقلية) هي كل مايتعقله الانسان ، وهو يتعقل بأحد الامور الاربعة الاتية :

أ ـ الحد ، وهو تام وناقص :

الحد التام : مايجمع بين الجنس والفصل ، كـ« الانسان حيوان ناطق» ، فان «الحيوان» جنس و«الناطق» فصل .

الحد الناقص : مايكون فيه الفصل فقط كـ« الانسان ناطق » .

---

(١) الظاهر انها من اليونان .

ب ـ الرسم ، وهو تام وناقص :

الرسم التام : مايجمع بين الجنس والعرض الخاص ، كـ«الانسان حيوان ضاحك » .

الرسم الناقص : مايكون فيه العرض الخاص وحده ، كـ«الانسان ضاحك » .

ج ـ البرهان ، مثل « العالم متغير ، وكل متغير حادث ، فالعالم حادث » .

د ـ الاستقراء ، وهو أن يدرس الانسان عدة جزئيات ليتوصل الى حكم عام ، وهو تام وناقص :

الاستقراء التام : وهو يفيد اليقين الذي لا يشوبه شك ، مثل « كل شيء اما كروي واما مضلع ، وكل كروي متناه وكل مضلع متناه ، فاذاً كل شكل متناه » .

الاستقراء الناقص : وهو الذي لا يفيد الا الظن لانه غير كامل ، وهو كمن يستقرىء أنواع الحيوان فيجد أنها تحرك فكها الأسفل عند المضغ فيقول « كل حيوان يحرك فكه الاسفل عند المضغ » ، وفاته أن التمساح يحرك فكه الاعلى عند المضغ .

(الحكمة العملية) وهي كل ما يفعله الانسان لغاية كمالية .

مسائل الحكمة :

والمسائل عند اهل الحكمة ثلاث ، وهي :

١ ـ الالهيات ، تبحث في الباري عزوجل .

٢ ـ الطبيعيات ، تبحث في العالم .

٣ ـ الرياضيات تبحث في الكمية من حيث هي .

وقد قسموا العلم الى :

« علم ما » ؛ وهو البحث عن ماهيات الأشياء .

« علم كيف » ، وهو البحث عن كيفيات الاشياء .

« علم كم » ، وهو البحث عن كميات الاشياء .

وقد زاد المعلم الاول « ارسطوطاليس » علماً هو بمثابة الميزان او الالة لهذه العلوم ، وسماه « تعليمات » ، وهو الذي يعرف الان « بالمنطق » .

ولا يخفى ان مسائل الالهيات هي من « علم ما » ، ومسائل الطبيعيات هي من « علم كيف » ؛ ومسائل الرياضيات هي من « علم كم » .

ثم ان موضوع الالهيات هو « الوجود المطلق » ، ومسائلها هي « البحث عن أحوال الوجود من حيث هو وجود » .

وموضوع الطبيعيات هو « الجسم » ، ومسائلها هي « البحث عن

أحوال الجسم من حيث هو جسم » .

وموضوع الرياضيات هو « الابعاد والمقادير » ، ومسائلها هي « البحث عن أحوال الكمية من حيث هي كمية » .

تمييز الكلام عن الفلسفة :

لابدهنامن معرفة مايميز الكلام عن الفلسفة ، لان البحث في الفلسفة يكون جارياً على قوانين العقل ، سواء وافقت الاسلام أو خالفته . والبحث في الكلام يجري وفق المبادىء الاسلامية ، ويفرض على العقل في بعض الاحيان ـ كما في التعبديات ـ ان يسير على نهج الاسلام مع أخذ الادلة العقلية بنظر الاعتبار .

وعلى هذا يكون بين الفلسفة وعلم الكلام عموم وخصوص من وجه ، وهو الاجتماع في موضوع واحد والافتراق في موضوعين .

مثلا : الفلسفة والكلام يجتمعان في التوحيد ، وتفترق الفلسفة عن الكلام في المعاد ، ويفترق الكلام عن الفلسفة في النقليات .

الرواد الاوائل لعلم الكلام :

في تعيين أول من تكلم على ضوء الاسس الكلامية نقاش طويل بين الطوائف الاسلامية : فمنهم من قال ان أول المتكلمين كان من

السنة ، ومنهم من قال انه كان من الشيعة .

ولو فحصنا المصادر الباحثة عن هذا الموضوع بشيء من الدقة والموضوعية لنرى أن أول من تكلم في علم الكلام هو عيسى بن روضة التابعي مولى بني هاشم ، وهو من الشيعة الامامية ، وقيل فيه من طرق العامة ان له كتاباً في الامامة ، وهو أول المتكلمين . ثم جاء بعده أبو هاشم ابن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم تسلسل المتكلمون بعدهما من التابعين وتابعي التابعين ، ممن يطول ذكر أسمائهم وتواريخهم .

وقالت العامة : ان اول المتكلمين هو عمرو بن عبيد المعتزلي الذي أسس مذهب الاعتزال ، ولد سنة ثمانين من الهجرة وتوفي ببغداد سنة ١٤٤ هـ . ثم جاء بعده واصل بن عطاء ، وهو الغزال من رؤساء الاعتزال وتوفي سنة ١٣١ هـ ، ثم تلاهما رجال من المعتزلة تكلموا في هذا العلم ، وأخذ عنهم أبو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري المتكلم البصري المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ أو ٢٧٠ وتوفي بها سنة ٣٠٣ ؛ وقد جرت بينه وبين أستاذه أبي علي الجبائي مناظرة في بعض المسائل اختلف معه فيها وانفرد عنه وأسس لنفسه مذهباً كلامياً يعرف به ، وكذا خالف بقية علماء المعتزلة في كثير من مسائل علم الكلام .

بعض المتكلمين من علماء الامامية :

لقد سبق منا القول بأن المتكلمين من علماء الامامية كثيرون ولا يسع المجال لسرد أسمائهم جميعاً وبيـان تواريخهم ؛ ولكن لابأس بأن نذكر بعضهم هنا على سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ خالد بن سعيد بن العاص الاموي ، كان من المخلصين لعلى عليـه السلام ، وكان اسلامـه قبل أبي بكر ، ولـه كلام مـع ابى بكر محتجاً عليه .

٢ ـ صعصعة بن صوحان العبدى ، نزيل الكوفة ، التابعىالكبير، وله كلام مع معاوية .

٣ ـ ميثم بن يحيى التمار ، خطيب الشيعة في الكوفة ومتكلمها ؛ أخذ العلم عن علي عليه السلام .

٤ ـ كميل بن زياد النخعي، صاحب سر أمير المؤمنين عليه السلام، وتخرج عليه في العلوم .

٥ ـ قيس الماصر ، من أعلام المتكلمين ، وتعلم الكلام من علي ابن الحسين عليه السلام .

٦ ـ فضـال بن الحسن بن فضـال الكوفي ، المتكلم المشهور ، ناظر أبا حنيفة فقطعه .

٧ ـ هشـام بن سالم ، مولى بشر بن مروان ، كان من خواص الامام الصادق عليه السلام .

٨ ـ هشام بن الحكم ، صحب الامام الصادق والامام الكاظم عليهما السلام .

٩ ـ الفضل بن شاذان ، أخذ عن الأئمة الرضا والجواد والهادى عليهم السلام .

١٠ ـ الشيخ المفيـد ، محمد بن محمـد بن النعمـان التلعكبري البغدادي .

١١ ـ الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوى .

١٢ ـ الخواجة نصير الدين محمدبن محمدبن الحسن الطوسي .

١٣ ـ العلامة الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي ، ولد سنـة ٦٤٨ ﻫ وتوفى سنة ٧٢٦ ﻫ .

الى غير هؤلاء من علمائنا الماضين ؛ رحمهم الله جميعاً .

وسنتخذ المؤلفات الباقية من هؤلاء وغيرهم من أئمة علم الكلام منهاجاً لمحاضراتنـا الاسبوعية القادمـة ، انشاء الله تعالى ، وهو حسبنـا ونعم الوكيل .

واجب الوجود

افي الله شك

« أفي الله شك فاطر السماوات والارض »
(سورة ابراهيم : ١٠)

حاول الماديون بكل جهدهم انكار وجود الله تعالى ، ولكن خسئوا ولم يتمكنوا من الوصول الى مآربهم الالحادية .

نعم ، بعد بذل قصارى جهدهم تمكنوا من وضع حجر العثرة في طريق نفر من الموحدين ، وهم الضعفاء الموصوفون على لسان امير المؤمنين عليه السلام بأنهم « همج رعاع ، أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يهتدوا الى ركن وثيق » .

وكان ذلك من طريق تشكيكهم في وجود واجب الوجود ، وتقوية الشبهات والأوهام في انكار الله جل وعلا . وأنى لهؤلاء المساكين الضالين انكار وجوده تعالى وهم لا يخترقون سماءاً ولا ينزلون أرضاً ولا يجتاحون ظلاماً ولم يسخروا هواءاً ، بل هم أضعف من ذلك وأضعف بكثير . .

ان العلماء الماديين لم يشاهدوا الله تعالى ، وهم كما نطق عنهم كاكارين بما مضمونه « اني فتشت الفضاء فلم أجد لله أثراً ولا عيناً » . .

ذلك لانهم اقل من ان يجدوا جبار السماوات والارض ، وكيف يمكن للمحاط ان يجد المحيط ؟ .

أسفاً ان يسمى هؤلاء علماء ، انهم لم ينصفوا العلم والمعرفة ، العالم الحق هومن لم يكذب حواسه ولم ينكرعقله ولم يبتعد عن الواقع ولم يقل الا الحق .

مع استنزاف ميزانيات الدول الكبرى ، وبذل جهد متواصل من ادمغة المفكرين لصنع سفينة فضائية لا تتجاوز مساحتها امتار ووزنها عدة اطنان ، ولاتقل نسمة من نسمات ؛ محتاجة الى جاذبيات الكواكب، لا مدار لها بينها ولم تنتظم في عقدها . . مع كل هذا نرى ان اي خلل في اتقان صنعها سوف يؤدي الى ضياع جهد المفكرين والقائمين على صنعها .

ألا يدل هذا دلالة قاطعة على عظمة صانع هذه العوالم ، والقائم على سير هذه الكواكب والاجرام ؟ ألم يدرك هؤلاء العلماء أن آلاف السنين التي مرت على هذه الكواكب لم تؤثر على انتظام سيرها أوقوة ضوئها وضعفه ؟ ألم يكفهم ما أدركه ربانوا سفنهم الفضائية من وجود الحياة في أعلى طبقات الفضاء كما أدركه من غاص منهم في قعر البحر ؟ ألم يكفهم دليلا - وهم علماء - على أن المادة فاقدة للحياة عاجزة عن التدبير ؟

ان من كان عالماً عليه أن يذعن للبرهان ويسلم للحجة ولا ينكر المعلوم الواضح ويتعصب للشيء المجهول .

المادة لا تصرّف هذا الكون ، ان مصرفه ومدبره والقائم عليه هو الخالق القادر الحي القيوم ، الذي دلتنا عظمة مخلوقاته عليه .

ثم ان العلم لابد أن يؤدي الى نتيجة مثمرة ، فهل أدرك مثل هؤلاء العلماء نتيجة علمهم ؟ وما هي ؟ لاشك أنهم لم يجدوا الله تعالى ، والقاعدة العامة تقول : ان عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود .

وعلى سبيل المثال : لو قال أحدنا لآخر ائتني بشيء « ما » ، ولما فتش هذا الآخر لم يجد ذلك الشيء في ذلك المكان الذي فتش فيه لان المكان محدود ، فعدم وجدانه ذلك الشيء في المكان لايدل البتة على عدم وجوده . وهذا معنى قاعدة : « عدم الوجدان لايدل على عدم الوجود » .

فدع المضلين يفتشون عنه عسى أن يجدوه ، وهل يجده الا ذو بصيرة شُرح صدره للايمان وارتفع عقله الى حيث الوجدان . كم راموا الغوص في هذا البحر الخضم فأشرفوا على الهلاك :

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلا

انت حيرت ذوي الـ ـلب وبلبلت العقولا

يقول الله تعالى منكراً على الماديين « أفي الله شك فاطر السماوات والارض » ، وهذه الهمزة في الاية الكريمة تدل على الانكار ، لان الهمزة

اما للاستفهام الحقيقي أو لغيره ؛ ومن جملة الاستفهام غير الحقيقي هو الانكاري كما في الاية المذكورة (١) .

وجاءت الهمزة للانكار التوبيخي في الاية الكريمة ، حيث أن الله تبارك وتعالى يريد أن ينكر عليهم ـ أي على الماديين ـ ويوبخهم في آن واحد .

أفي الله شك والسماوات والارض تنطقان للفطرة بأن الله تبارك وتعالى أبدعهما ابداعاً وانشأهما انشاءاً ؟ وأنت ترى أن السماوات

---

(١) الاستفهام ينقسم الى حقيقي وغير حقيقي ، فالاستفهام الحقيقي هو أن تسأل عن حقيقة مشخصة ، كقولك « أزيد قائم ؟ » . والاستفهام غير الحقيقي هو على أحد معان ثمان :

١ ـ التسوية ، كقوله تعالى « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » .

٢ ـ الانكار الابطالى ، وهى التى ما بعدها يكون غير واقع وان مدعيه كاذب ، مثل « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون » و « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » .

٣ ـ الانكار التوبيخى ، وهى تقتضى أن ما بعدها واقع وأن فاعله ملوم ، مثل « أغير الله تدعون » .

٤ ـ التقرير ، ومعناه حمل المخاطب على الاقرار ، كقوله تعالى « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .

٥ ـ التهكم ، كقوله تعالى « أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا » .

٦ ـ الامر ، كقوله تعالى « أأسلمتم » أى أسلموا لرب العالمين .

٧ ـ التعجب ، كقوله تعالى « ألم ترالى ربك كيف مد الظل » .

٨ ـ الاستبطاء ، كقوله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا » .

والارض آيتان هائلتان بارزتان لا احتياج الى قيام دليل على وجودهما .

ان هذه النجوم اللامعة التي تراها في السماء وهي لاتعدولاتحصى ، وهذه المجرات التي تحوي آلاف الملايين من النجوم ، والشمس والقمر ببديع صنعهما ، وهذه الكائنات بما فيها من الايات والعجائب والغرائب ما لا عد لها ولاحصر . . كل هذه العجائب تدل دلالة واضحة على وجود الخالق المتعال .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ومختصر القول : يجب على عامة المكلفين معرفة الله سبحانه وتعالى لدفع الشكوك والاوهام من الأذهان الضعيفة ، لتنمى تنمية تتمكن من الوصول الى الغاية القصوى ، وهي السعادة الابدية .

الطريق :

وهنا يأتي سؤال يجب الجواب عنه ، وهو : ما هو الطريق الى معرفة الله تبارك وتعالى ؟ .

الجواب : لاشك ولاريب أن الطريق هوعلم أصول الدين ، وهو ما يبحث فيه عن وجود الله عزشأنه ووحدانيته وصفاته ، وعدله ؛ ونبوة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والاقرار بما جاء به نبي الاسلام صلى الله عليه وآله ، وامامة الائمة المعصومين عليهم السلام ، والمعاد .

معنى يجب :

أما يجب فمصدره الوجوب ، وهو في الاصطلاح مايذم المكلف بتركه ، ومعنى ذلك أنه لوكان هناك أمر واجب على المكلف لزمه اتيان المأموربه ، فان ترك المكلف اتيان المأموربه لااشكال أنه يذم عقلاوشرعاً .

وبتعبير آخر : الوجوب على قسمين :

وجوب على الجوانح ، وهي الاعتقادات القلبية ، كالاعتقاد بأن الله تبارك وتعالى موجود .

وجوب على الجوارح ، وهي الافعال التي يجب صدورها من الانسان ، كالصلاة والصوم والامربالمعروف والنهي عن المنكر - الخ .

فالوجوب المعني بالبحث هوالقسم الاول ، وهو مابجهله يستحق المكلف العقاب ، والعقاب امايجري عليه في الدنيا كاقامة الحد عليه ، واما في الآخرة كادخاله النار .

اقسام الواجب :

الواجب على قسمين :

١ - الواجب العيني ، ومعنى « العيني » أنه يجب على كل فرد فرد أن يأتي بالمأمور به بنفسه . مثاله : الصلاة ، فانها تجب على كل مكلف حي ، ولايتمكن البعض من اتيانها عن البعض الاخر .

٢ - الواجب الكفائي ، ومعنى « الكفائي » أنه ان وجب أمرعلى

المكلفين وقام بعضهم أوأحدهم باتيان المأموربهفانه يسقط عن الاخرين .

مثاله : صلاة الأموات ، فان مات أحد المسلمين يجب الصلاة عليـه ، وهذا الوجوب يشمل عامة المسلمين بالوجوب الكفائي ؛ فاذا قام بهذا الواجب احدهم سقط عن الاخرين .

ووجوب معرفة الله تبارك وتعالى من القسم الاول ، أي انها واجب عيني على كل فرد فرد من الناس .

المكلف :

أمـا المكلف فهو الانسان الحي البـالـغ العاقل ؛ وبهذه القيود الثلاثة ـ أي الحيـاة والبلوغ والعقل ـ يفهم أن من لا تتوفر فيـه هذه الشروط لا يكون مكلفاً ، وهو خارج عن نطاق التكليف .

المعرفـة :

للمعرفة اطلاقات عديدة منها :

١ ـ حصول صورة الشيء عند العقل مجرداً عن الحكم ، كقولك « زيد » ، واحضار هذا المعنى الجزئي المشخص في ذهنك ، وهذا هو مجرد صـورة الشيء ؛ يعني صورة معنى زيد عند العقل . والمنطقيون يسمون هذا النوع من التصور بـ « التصور الساذج » .

٢ ـ حصول صورة الشيء عند العقل مـع الحكـم ، كأن تحكم

على زيد بالقيام ، ومعناه انك تتصور معنى « زيد » أولا ، وتتصور معنى « القيام » ثانياً ؛ ثم تتصور النسبة بينهماثالثاً،ثم تحكم فتقول«زيدقائم» . وهذا باصطلاح المنطقيين هو « التصديق » واذعان النفس .

الاصـول :

الاصول جمع الاصل ، وهو مايبنى عليه غيره . أو قل : الاصل هو مادة الشيء الذي لا يكـون الشيء بدونه . فانك لو أردت بنـاء دار مثلا يجب عليك أن تؤسس له ؛ وأن تجعل أصلا ومادة لهذا البناء حتى تتمكن من بناء الطوابق العديدة على ذلك الأساس .

وكما أن للبنـاء أصلا فكذلك للدين أصـل ، وكما أن الطوابق العديدة تبنى على الاصل في البناء فكذلك العلوم الدينية تبنى على اصول الدين . وعلى هـذا يثبت أن جميع العلوم الدينيـة ـ كالفقه والحديث وما أشبههما ـ متوقفة ومبنية على أصول الدين . ومن باب المثال : ان الحديث متوقف على تصديق النبي صلى الله عليه وآله ، وهـو مبعوث من الله تعالى ، فهذا التصديق متوقف على معرفة الله عز شأنه .

الدين والشريعة :

الدين في اللغة هو الجزاء ، وفي الاصطلاح هو الشريعة المنزلة على الانبياء عليهم السلام من الله تعالى .

وأما الشريعة فهي مجموعة قوانين لا يعتورها التغيير والتبديل والتحريف ، ولا تقبل الزيادة والنقصان ، كالدين الاسلامي الذي حلاله حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة .

ومايسمع من البعض بأن هذا لايتماشى مع روح العصر، والواجب على البشر أن يتطور ، فهي كلمات مغرضة يريد أصحابها القضاء على الشريعة الاسلامية ، والتوجه الى المبادىء الكافرة المستوردة التي لم ينزل الله بها من سلطان «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»(١).

الجزاء :

أما الجزاء فالاعتقاد به هو كلية من كليات العقيدة الاسلامية ذات قيمة في الفات أنظار البشر الى يوم يجزون فيه ، ولهذا ترى الانسان المتدين المعتقد يمتنع من جميع ما يخل بالثواب يوم الجزاء ، ويعمل دوماً لكسب الثواب اكثر فأكثر . وتراه أيضاً لا يعمل الا وكله اخلاص في عمله لرب العالمين ، لان العمل بلا اخلاص كالجسم بلا روح ، فلا يستبد بالمؤمنين القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم المحدود « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » (٢) .

وعندئذ يملكون العمل الجدي المخلص ، وينتظرون الرحمة

---

(١) سورة المائدة : ٤٤ .

(٢) سورة الاسراء : ١٩ .

والجزاء حيث يقدره الله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (١) .

وذلك اليوم هو « يوم لا ينفع مال ولا بنون * الا من اتى الله بقلب سليم » (٢) .

---

(١) سورة الزلزلة : ٧ و ٨ .
(٢) سورة الشعراء : ٨٨ و ٨٩ .

النظر والاستدلال

« أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شيء » .

(سورة الاعراف : ١٨٥)

القرآن العظيم يدعو الانسان الى التفكر والنظر والاستدلال والتدبر ، وهذه الاية الكريمة تطلب النظر بالقلب المفتوح والعين التي تبصر ما في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم ، وهذا وحده يكفي للاعجاز الذي يدل على الباري جل وعلا شأنه ، وانه تعالى واجب الوجود.

لقد جاء معظم الفلاسفة لينظروا في مبادىء الاشياء وحقائقها ، ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ليتوصلوا الى معرفة علة العلل ، وهو الله الواحد الاحد مبدع العالم من العدم . وهؤلاء الفلاسفة اتخذوا المنطق طريقاً موصلا الى ما يبتغون .

المنطق :

المنطق هو أداة الفكر ومعيار النظر ؛ ومنزلته من الفلسفة منزلة علم النحو من اللغة ، الا أن النحو يعني بالالفاظ والمنطق يعنى بالمعاني،

ولاتكون الالفاظ عندالمنطقي الأداة للتعبير عمايطلب احضاره في الذهن .

وقدأثر المعلم الثاني الفارابي (٢٥٩ - ٣٣٩هـ) في الفلسفة الاسلامية من جهة المنطق بثلاثة أنواع من التأثير ، وهي :

١ - حسن صياغة العبارة المنطقية ، مما يجعلها مقبولة مفهومة .

٢ - العناية بالتحليلات الثانية - أي البرهان - بعدأن كان السابقون لا يتجاوزون التحليلات الاولى - أي القياس .

٣ - دخول المنطق في علم الكلام ، حتى أصبح بعدالقرن الخامس الهجري جزءاً لايتجزأ من مباحثه .

وفضلا عن الفلاسفة فقد اهتدى الانسان بفطرته - وهو يتلقى ايحاءات هذا الوجود في حسه - أن له الهاً ، ولم تغب عن حسه قط هذه الحقيقة .

أما الملحدون فهم مسوخ زاحموا الفطرة ، حيث أنهم يثبتون القردية لانفسهم ، بل انهم ينكرون الفطرة ويعاندون ما يجدون في أنفسهم من الحاحها ، وعندما صعد أحدهم (كاكارين) الى الفضاء ورأى ذلك المشهد الباهر - مشهد الارض كرة في الفضاء - هناك أخذت فطرته تهتف : ما الذي يمسك الارض هكذا في الفضاء ؟ ولكنه حين هبط الى الارض وتذكر ارهاب دولته قال : انه لم يجد الله هناك . وكتم الحاح فطرته وصراخها في أعماقه أمام شيء من ملكوت السماوات والارض « فانها

لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (١) .

والطريق الى معرفة الله تعالى أوضح ممايتصوره هؤلاء الملحدون ان كانوا منصفين ، فقد جاء أحدهم الى الامام أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقال له الامام : أتعلم أن للارض تحتاً وفوقاً ؟ قال الملحد: نعم . قال الامام :ادخلت تحتها؟قال الملحد : لا . فقال الامام : مايدريك ما تحتها ؟ قال الملحد : ما أدري ، الا أنني أظن أن ليس تحتهاشيء . فقال الامام : الظن عجزلم لاتستيقن ؟ ثم قال الامام عليه السلام : أقصدت السماء ؟ قال الملحد : لا . فقال الامام : أتدرى مافيها ؟ قال الملحد : لا . فقال الامام : عجباً لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب ولم تنزل الارض ولم تصعد السماء ولم تجز هناك فتعرف ماخلفهن وأنت جاحد بمافيهن ، وهل يجحد العاقل مالايعرف ؟ ثم أخذ الامام عليه السلام يتكلم بأبسط الكلام وألذه ـ الى أن قال : أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم ، ولا حجة للجاهل ، تفهم عني ، فانا لا نشك في الله أبداً ـ الخ .

الخلاصة :

آمن ذلك الملحد على يدي أبي عبد الله عليه السلام .

أنظر الى استدلال الامام عليه السلام كيف جرى على أبسط لهجة

---

(١) سورة الحج : ٤٦ .

واوضح فكرة ، حيث يتمشى مع فطرة الانسان الذي لم تتعقد فطرته ، الانسان الخالي الذهن من شوائب الالحاد وشرائك الملحدين .

بهذا يتحقق ان وجوب معرفة الله تعالى وصفاته الكمالية والجلالية وما يصح عليه وما يمتنع عنه يلزم ان يكون بطريق النظر والاستدلال على النمط الذي يوافق ويستوي مع فطرة الانسان السليمة بلا تكلف ولا تعسف . وقد سماه الفلاسفة بمعرفة العلة الفاعلية التي تعتبر الينبوع الاول .

ولا يخفى أن العلل على ضروب أربعة :

أ ـ علة فاعلية .

ب ـ علة مادية .

ج ـ علة صورية .

د ـ علة غائية .

ونحن الآن في صدد اثنتين منها ، هما :

١ ـ العلة الفاعلية ، وهي الفاعل الاول للشيء .

٢ ـ العلة المادية ، وهي الاصول التي تم بها الشيء .

ولاجل التوضيح نقول مثلا : الدار لها علة مادية وهي الخشب والسمنت والحديد والجص وغيرها من المواد الانشائية ، ولها علة فاعلية هي البناء الذي لولاه لما بنيت الدار . ولا شك ان البناء يغاير

المواد الانشائية . وكذا هذه العوالم لابد لها من علة مادية وعلة فاعلية، ولابد من تغايرهما ، فهل صانعها وعلتها الفاعلية شيء آخر خارج عن حدود المادة ومغاير لها ، كما أن صانع الدار يغاير السمنت والخشب والحديد ؛ أوأنه نفس المادة التي تتركب منها كائنات السماوات والارض وما فيهن وما بينهن ؟

ان المحاولات التي قام بها الماديون في التوفيق بين العلة الفاعلية والعلة المادية محاولات فاشلة .

والامر الوحيد الذي يوصل الانسان من العلة المادية الى العلة الفاعلية هي خطوات ثلاث :

الاولى : اعتقاد أن القدم في الكائنات موجود بالمعنى الازلي ، والا فالتسلسل ، والتسلسل باطل .

الثانية : اعتقادأن المادةليست أزلية ، لانهالوكانت أزليةلماتغيرت، والتغير دليل الحدوث ، حيث أن كل متغير حادث .

الثالثة : اعتقادأن ماوراءالمادة أزلي ، وهومصدرجميع الكائنات، وهو العلة الفاعلية . وهو من قال فيه علي عليه السلام « كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، فاعل لا بمعنى الحركات والالة » .

والغاية القصوى هي معرفة هذا الفاعل جل شأنه على وجه اليقين الذي تطمئن اليه النفس اعتماداً على الدليل ، حسبما أرشدنااليه الكتاب الكريم .

و « الدليل » هو مايلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، لذا أمرنا بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون .

وأمرنا بالنظر لان المعرفة ليست ضرورية ، ولان المعلوم ضرورة هو الذي لا يختلف فيه العقلاء بل يحصل بأدنى سبب من أسباب توجه العقل اليه ، وأسباب التوجه خمسة : الانتباه ؛ وسلامة الذهن ، وسلامة الحواس ؛ وفقدان الشبهة ، وعملية غير عقلية (١) .

---

(١) الانتباه : وهومطرد في جميع البديهيات ، ومعناه : ان الانسان يكون منتبهاً عندما يتوجه الى شيء ، ولو لم يكن منتبهاً لما توجه الى مطلوبه .

مثلا : نرى أن الانسان يقرأ شيئاً ما ، ولكنه غير منتبه اليـه ، فلم يتوجه الى ما يقرأه ولم يفهم مغزاه ومعناه .

سلامة الذهن : وهوأيضاً مطرد فيجميع البديهيات ، ولولم يكن الانسان سالم الذهن لماتوجه الى أبسط الامور . فانك لوتكلمت مع شخص ذهنه غير سالم لم يتوجه الى كلامك قطعاً ولايصل الى مطلوبك حتماً .

سلامة الحواس : وهي خاصة بالحسيات ، فلو لم تكن الحواس الخمس ـ وهيالباصرة والسامعة والذائقة والشامةواللامسة ـ سالمة لم يتوجهالانسان الى ما يخص أحد هذه الحواس ، فان فاقد الذائقـة مثلا لم يتوجه الى حموضـة الحامض ، وكذلك العين لولم تكن سالمة لماعرفت قوة النور وضعفه . وكذا بقية الحواس .

فقدان الشبه : ومعنى فقدان الشبه أن لاتشوب الذهن شبهة مقابل البديهة ، وكثير من الفلاسـفة والمتكلمين وقعوا في شرك الشبه مقابل البديهة ، وقالوا : ان بين الوجود والعدم فراغ سموه « الحال » ، في حين أن لافراغ بين الوجود والعدم .

ولاجل التوضيح نمثل الوجودوالعدم بحبل ممدود نصفه أبيض والنصف الاخر أسود ، فاذا استعملنا ابرة وأخذنا نسحب هذه الابرة على الحبل الممدود ،

الدليل :

قد يكـون الدليل عقلياً محضاً ،كقولك « العالم ممكن ، وكل ممكن حادث ، فالعالم حادث » ، وهذا قياس من الشكل الاول .

وقد يكون مركباً من العقل والنقـل ، وذلك اما أن يكون بعضها عقلي وبعضها نقلي كقولك « الوضوء عمل ، ولابد لكل عمل من النيـة لقوله صلى الله عليه وآله : انما الاعمال بالنيات » ، أوتكون المقدمات كلها نقلية لكنها منتهيـة الى العقل كقولك « تارك الامر عاص ، وكل عاص مستحق للنار ، لقوله تعالى : أفعصيت أمري ، وقولـه : ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم » .

وقد استدل ديكارت عقلياً على وجـود الله تعالى بازاحة النقاب عن ذاته هو ـ أي ديكارت ، وهو بدء يقتضيه الترتيب النفسي لاالترتيب الكينوني ، لان الله تعالى سابق للانسان في ترتيب الكائنات ، وقد أدرك ديكارت هذه الحقيقة على الرغم من أن حجر الزاوية في فلسفته هو « أنا أفكر » اذاً أنا موجود « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

ـ فان الابرة تسحب على البياض الى نهايته ثم تنتقل من البياض الى السواد مباشرة وبدون أى تخلل بين السواد والبياض .

فأين الفراغ الذى وقع بين هذا السواد الذى جعلناه بمثابة العدم وبين البياض الذى فرضناه بمثابة الوجود ؟ اذاً فان جعل « حال » بين الوجود والعدم شبهة مقابل البديهة .

عملية غيرعقلية : وهى أن يعمل الانسان عملا لا يحتاج الى تفكر وامعان نظر . مثل انك لو أردت معرفة القطار لاتحتاج الى تفكروانما تحتاج الى السير لجهة القطار لتشاهده وتعرفه عن مشاهدة .

قال : ان فكرة اللامتناهي سـابقة لدي لفكرة المتناهي ـ أي ان ادراك الله تعالى سابق لادراك نفسي .

واستدل امير المؤمنين علي عليـه السلام على وجـوده بقوله : « الحمد لله الدال على وجوده بخلقه ، وبمحدث خلقه على أزليته » .

وهذا الاستدلال هو المسمى بـ « الدليل الاني » (١) .

وقال عليـه السلام : « بصنع الله يستدل عليه ، وبالعقـول تعتقد معرفته ، وبالفكر تثبت حجته ، معروف بالدلالات ، مشهور بالبينات ؛ لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير » .

---

(١) الدليل على قسمين :

١ ـ اني ، وهو معرفة العلة بواسطة المعلول .

٢ ـ لمي ، وهو معرفة المعلول بواسطة العلة .

العقل والفكر

« ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب » .

(سورة آل عمران : ١٩٠)

ان غاية ما يطلبه الفيلسوف هي معرفـة السبب الأول للكائنات ، ومنتهى ما يتطلبه الحكيم هو ادراك علة العلل ، وهذا لا يتم الا بالعقل ، ولذا دفع القرآن الكريم الناس الى التعقـل في الكونيات ليصلوا الى معرفة واجب الوجود ، فقال عز شأنه : «ان في خلق السماوات . . » وهذا النوع من التدليل يسمى بدليل العناية كما قاله ابن رشد .

ثم ان في الآيـة المباركة جاءت كلمة « الالباب » ، وهي جمع لب ، واللب هو العقل ، والعقل هو الحجة البالغة . وفي قوله تعالى : « ولله الحجة البالغة » اشـارة الى احدى المعاني للحجة . وقد جاء في الحديث أيضاً ما مضمونـه « ان لله على الناس حجتين : حجة ظاهرة ، وحجة باطنة » .

الحجة الظاهرة :

ان الرسل والانبياء الذين أرسلهم الله تعالى وأنزل عليهم الشرائع لهداية الناس والاخذبيدهم الى سعادة الدنيا والاخرة ، ومن بعدهم الائمة الطاهرون ، هم حججه الظاهرة على الخلق .

الحجة الباطنة :

يرادبالحجة الباطنة العقل الذي قال فيه الباري جل جلاله : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك ، اياك آمر ، واياك أنهى ، واياك أثيب ، واياك أعاقب .

ودليل العقل هوالتفكر ، والتفكر هوالطريق الموصل الى ماوراء الطبيعة والالة الموصلة من المعلوم الى المجهول . لان الانسان اذا واجه مشكلة وعرف نوعها فزع عقله الى المعلومات المخزونة في ذهنه ، ويؤلف من معلوماته ما يناسب لحل المشكل ، وبعد تأليفه المعلومات المناسبة يصل الى المطلوب ، وهذه العملية تسمى بـ« الفكر » .

وبعدهذا التقريرعن العقل والفكر يظهرلنا جلياً أن الماديين الذين لم يعترفوا بما وراء الطبيعة لم يعترفوا بالعقل . وان شئت فقل : لا عقل لهم ليوصلهم الى ما وراء الطبيعة . لذا قالوا في فلسفتهم : ان العقل

متحيز (١) ناقص ينبثق من واقع الطبيعة التي ينتمي اليها الفكر .
وقالوا : ان الواقع المادي هو الذي يوقظ الفكر والعقل ، ويوجهه حسب الوجهة التي تحتمها الوضعية المادية الاصلية ، وعليه فان الافكار والآراء هي حصيلة الوضع المادي .

ويغالي الماديون ـ وهم في الغالب دعاة الماركسية في عصرنا هذا ـ اكثر من ذلك ، فيذهبون الى أن العقل والتفكير يتكونان بفعل العوامل الاقتصادية والفسيولوجية (٢) الصرفة . وبذلك يصبح الذكاء والتفكير رهن ظروف المعدة والعوامل المعاشية .

وبكلامهم هذا جعلوا الانسان المكرم ـ الذي توج بتاج الكرامة ـ بهيمة مربوطة لاهمّ لها الا علفها . .

أنى للبهائم عقل أن تفكر فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار ، أو تتدبر فى أنه لابد للبناء من بناء وللنبات من زارع ولاختلاف صورها من صانع ، وهل يكون بناء من غير بان ؛ أو جناية من غير جان ؟ ! .

وهذا ـ أي وجوب البناء (بالتشديد) للبناء ـ هو الذي يسمى بـ« العلة الفاعلية » ، لانه يستند الى مقدمتين :

---

(١) المتحيز : الشاغل للفراغ ، ولم يكن العقل شاغلا للفراغ ، وانما قولهم هذا ـ على ما أظن ـ من باب الاستعارة .

(٢) الفسيولوجيا : علم وظائف الاعضاء .

(الصغرى) يقرها الحس ، وهي « هذا الكون بناء » .

(الكبرى) تشتمل على مبدأ عـام يقتضيها المنطق ، وهي « لكل بناء بان » .

وينسب هذا البرهان الى أفلاطون الذي كان يعتمد في الفلسفة على المنهج الرياضي .

ولارسطو برهـان آخر يسمى بـ« برهان الحركة » وهو : ان فى الكون حركة ، ولكل متحرك محرك ؛ فلابد من وجود محرك لايتحرك ، لبطلان التسلسل .

وهناك نظريات متعددة تثبت وجود المبدأ للكون ومنها :

نظرية الوجود :

وهي عبارة أخرى عن « العلة الفاعليـة » و « برهان الحركة » .

وهى النظرية القائلة : ان الموجوديحتاج الى علة لأجل وجوده ، وهذه الحاجة ذاتية للوجود ، فلا يمكن أن نتصور وجـوداً متحرراً من هذه الحاجة ، لان سبب الافتقار الى العلة سر كامن فى صميمه ، ويترتب على ذلك أن كل وجود معلول .

وقد أخذ بهذه النظرية بعض فلاسفة الماركسية ـ بالرغم من أن موقفهم فى مبدأ العلية يختلف عن موقف الفلاسـفة الالهين ـ واستندوا

في تبريرها علمياً الى التجـارب التى دلت فى مختلف ميادين الكـون على أن الوجود بشتى ألوانه وأشكاله التى كشفت عنها التجربة لايتجرد عن سببه ولا يستغنى عن العلة ، فالعلة ناموس عام (١) للوجود بحكم التجارب العلمية ، وافتراض وجود ليس له علة مناقض لهذا الناموس .

نظرية الحدوث :

وهى عبارة أخرى عن « برهان الامكان » مع اختلاف فى الصيغة .

وهى النظريـة التى تعتبر حاجة الاشياء الى أسبابها مستندة الى حدوثها ، فالانفجار أو الحركة أو الحرارة انما نتطلب لها أسباباً لانها أمور حدثت بعدالعدم ، والحدوث هو الذي يفتقر الى علة ، وهو الباعث الرئيسى الذي يثير فينا سؤال « لماذا وجد ؟ » أمام كل حقيقة من الحقائق التى نعاصرها فى هذا الكون .

ولنا برهان آخر ـ وقد سبق ـ وهو « برهان الحركة » المنسوب الى أرسطو الذي كان يعتمد على المنطق ، وهو : ان فى الكون حركة ، ولكل متحرك محرك ، اذاً لابدمن وجود محرك لايتحرك . وذلك لاستحالة تسلسل العلل الى مالانهاية .

---

(١) الناموس هو السر .

وجوب معرفة واجب الوجود :

ولو أن الانسان ـ المادي وغير المادي ـ اتجه نحو العقل السليم والفكر الصحيح وجد أن في نفسه حاجة ملحة : الى معرفة واجب الوجود ؛ الى معرفة موجد هذه الكائنات ، الى معرفة صفاته وما يصح عليه وما يمتنع عنه ؛ الى معرفة الوسيط بين الانسان وبينه ، الى معرفة اعوان الوسيط ، الى معرفة ماوراء الطبيعة ومعرفة الحياة . . الى معرفة كل ذلك .

ولهذا أجمع كافة العلماء على وجوب معرفة الله وصفاته الثبوتية والسلبية وما يصح عليه وما يمتنع عنه والنبوة والمعاد .

اجماع العلماء :

واجماع العلماء فيموضوع من الموضوعات ملتزم به عندالشيعة والعامة : أماعند الشيعة فلان الامام عليه السلام لابدأنه يكون داخلا مع المجمعين ؛ وأما عند العامة فلحديث ينسبونه الى النبي صلى الله عليه وآله « لا تجتمع أمتي على خطأ » .

ولم يشذ عن هذا الموضوع الا الاشاعرة أصحاب أبى الحسن الاشعري الذي مضىذكره ، فانهم لايقولون بالامتناع ، ومضى «الامتناع» أنهناك قبائحعقلية يمتنع صدورهاعن الله عزوجل . فالاشاعرة لايقولون

بامتناع شيء على الله تعالى وان كان قبيحاً ، اذ لا حسن ولاقبح عقليين عندهم ، فيجوزون أن يدخل الأنبياء النار ويدخل الكفار الجنة . فوقع بينهم وبين المعتزلة تنازع فى هذا الخصوص (١) .

الادلة على وجوب معرفة الله تعالى :

أما الأدلة على وجوب معرفة الله تعالى فهي عقلية ونقلية :

---

(١) موارد النزاع بينهما هي :

أولا : قالت المعتزلة هناك حسن وقبح عقليان ، فما حسنه العقل حسنه الشرع وما قبحه العقل قبحه الشرع . وقالت الاشاعرة : لا حسن ولا قبح عقليين وانما هما شرعيان فقط ، فما حسنه الشرع حسنه العقل وما قبحه الشرع قبحه العقل ايضاً .

ثانياً : الامامة ، فالاشاعرة لا يعتقدون الامامة الحق ، لانهم لا يوجبون اللطف على الله تعالى ، لعدم التزامهم بأحكام العقل المجرد ، فى حين أن الله سبحانه وتعالى استدل فى كتابه الكريم بحكم العقل على نفى الشريك لذاته المقدسة ، فقال عز من قائل « لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ، وهذا هودليل التمانع عند المتكلمين .

مثلا : لوكان هناك آلهين وأراد احدهما تقديم يوم القيامة والاخر يريد التأخير ، أويريد أحدهما انشاء خلق جديدوالاخر لايريد ذلك ، أواراد أحدهما أن يغفر لبعض المسيئين والاخر اراد عكسه . . وهكذا فى جميع التصرفات .

فان تحققت ارادتهما معاً لاجتمع المتنافيات وهوخلاف ، وان لم تتحقق ارادتهما معاً لظهر عجزهما وهو أيضاً خلاف ، وان تحققت ارادة أحدهما دون الاخر لكان ترجيحاً بلامرجح . ولهذا يمنع العقل أن يكون هناك آلهين أوآلهة ، وهذا ما يسمى بـ« دليل التمانع » .

ثالثاً : يعتبر بعضهم التقليد فى أصول الدين ، ونتيجة التقليد فى أصول الدين أن لا يكون لنا يقين فيه ، مع انه يحتاج الى اليقين والقطع .

وهذه النقاط نفترق نحن الامامية أيضاً فيها عن الاشاعرة .

الادلة العقلية :

« أولا » ـ دفع الخوف الحاصل للانسان من الاختلاف ، لانا نعلم أن هناك رجالا نسميهم أنبياء بعثوا من قبل الله تعالى لقيادة البشر ، وكلهم ينادون بوجوب واجب الوجود ، وانه المثيب والمعاقب في يوم ترجع العباد اليه ، وكل واحد من العباد يجازى حسبما عمل في الدنيا ، ان خيراً فخير وان شراً فشر .

وهناك فئة انكروا هذا النداء ، وقال قائلهم : ان العالم هو واحد لم يخلقه اله ولا انسان ، وقدكان ولايزال وسيكون شعلة حية الى الابد تشتعل وتنطفيء تبعاً لقوانين معينة . . فمن ظلم ظلم ومن ظُلم ظلم ، فلياً كل الانسان الانسان،فلاجزاء ولاعقاب . . وهؤلاء الطبيعيون الماديون.

ولاجل هاتين الجماعتين وقع الاختلاف في أذهان بني الانسان ، فمنهم من صدق ومنهم من كذب ، وهذا الاختلاف الواقع هو سبب الخوف الحاصل للانسان (١) .

« ثانياً » ـ وجوب شكر المنعم ، فان الوجدان يشهد بأن من أنعم على غيره يجب الشكر على المنعم عليه ، ولو ترك الشكر ذمه العقلاء .

---

(١) الخوف ألم نفساني يشعر الانسان بواسطته عدم الارتياح النفسي ، ويمكن دفعه بأسباب ، ولهذا يحكم العقل بوجوب دفعه . مثلا لو خاف الانسان من الفقر وجب عليه عقلا أن يعمل ويكتسب لدفع الفقر عن نفسه .

ولاشك أن الانسان موجود ، ولابد أن يتساءل : كيف وجد ؟ ومن أين وجد ؟ ومن الذي أوجده ؟ .

ومن البديهي أن الوجود من أعظم النعم على الانسان ، وبعد أن يعرف الانسان الموجد المنعم يجب عليه شكره .

والشكر لايكون الا بعد المعرفة ، والمعرفة مطلوبة لاجل نوع الشكر ومقداره بما يناسب المنعم ، ومنعم الوجود هو واجب الوجود ، الذي لايدركهُ بعد الهمم ولايناله غوص الفطن .

الادلة النقلية :

« اولا » ـ قال تعالى« فاعلم أنه لااله الاالله » (١) . ولفظة «اعلم» فعل أمر ، وقد ثبت عند جمهور علماء الاصول أن فعل الامر يدل على الوجوب لغة وعرفاً ، ودليلهم على ذلك أربعة (٢) :

الاول : القطع بأن السيد اذا قال لعبده « افعل كذا » فلم يفعل عد عاصياً وذمه العقلاء ؛ معللين حسن ذمه بمجرد ترك الامتثال ، وهذا هو معنى الوجوب .

الثاني : قوله تعالى « ما منعك الا تسجد » (٣) ، فان لفظة « ما »

(١) سورة محمد (ص) : ١٩ .

(٢) ايرادنا المسألة الاصولية هنا لما فيها من فائدة لايستغنى عنها .

(٣) سورة الاعراف : ١٢ .

للاستفهام غير الحقيقي ، ويراد منه هنا الانكار والذم ـ الذي هو كما مر أحدمعاني الاستفهام غيرالحقيقي ـ ولولم يكن الامرللوجوب لماكان الذم متوجهاً الى ابليس .

الثالث : قوله تعالى « فليحذر الذين يخالفون عن أمره » (١) ، فان كلمة « يحذر » هنا تهديد لمخالف الامر ، والتهديد أيضاً دليل الوجوب ، ولو لم يكن المأمور به واجباً لما كان موضع للتهديد .

الرابع : قوله تعالى « واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون » (٢) ، فانه تعالى ذم الكفار على مخالفتهم الامر حيث أمرهم بالركوع ولم يركعوا ، ولولا الامر للوجوب لما توجه الذم اليهم .

« ثانياً » ـ الآيات البينات ، كقوله تعالى « ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب » (٣) ، ومثلها آيات كثيرة تشير الى هذا المضمون . وكذلك وردت أحاديث كثيرة وأقوال عظيمة للائمة والانبياء عليهم السلام ومن تبعهم من الحكماء والفلاسفة .

لا يمكن أبداً لمفكر أن يفكر في هذا الكون الرحب الواسع ، وهذه الصنائع والبدائع ، وهذه الآثار التي تحتاج الى مؤثر قدير ،

(١) سورة النور : ٦٢ .
(٢) سورة المرسلات : ٤٨ .
(٣) سورة آل عمران : ١٩٠ .

وهذه المعلولات التي تحتـاج الى العلـة التامة ، ثم لايعترف بأن خالقاً خلاقاً ؛ فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدان أرضه . . فأول الدين معرفتـه ، وأدنى المعرفة الاقرار بأنـه لا اله غيره ، ولا شبيه ولا نظير له ، وأنه قديم مثبت ، موجود غير فقيد ، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

الاتباع والتقليد

« وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوهـا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » .

(سورة الزخرف : ٢٣)

لقد ذم الله سبحانه وتعالى أولئك النفر الذين آثروا التقليد الاعمى على الحجة والدليل والبرهان بلاتفكر ولا تدبر ، حيث أنهم قالوا « انا وجدنا آباءنا على أمة » . .

والأمة لها عدة معان كما جاء في القرآن الكريم ، ومنها :

الجماعة ، قال تعالى « وجد عليه أمة » (١) .

من تؤمها الفرق ، قال تعالى « كل أمة تدعى الى كتابها » (٢) .

الرجل الجامع للخير يقتدى بـه ، قال تعالى « ان ابراهيم كان أمـة » (٣) .

---

(١) سورة القصص : ٢٣ .

(٢) سورة الجاثية : ٢٨ .

(٣) سورة النحل : ١٢٠ .

الدين ، قال تعالى « انا وجدنا آباءنا على أمة » .

وهذا المعنى الاخير هو الذي نحن بصدده ، وللامة معان أخرى أضربنا عن ذكر كلها روماً للاختصار .

« وانا على آثارهم مقتدون » تعني نفعل مثل أفعالهم (١) .

اقتدى اولئك النفر من الناس بآثار من قبلهم من آبائهم ، وأخذوا يقلدونهم في كل صغيرة وكبيرة ، ويفعلون على غرار ما فعلوا بلا روية وتفكير ، كأن ليس لهم قلوب يفقهون بها ، ولا عقول يرجعون اليها ، مثلهم كالاعمى المنقاد الى أعمى آخر ، فكما ضل الاول ضل الثاني .

ولا ريب أن التقليد بهذا الشكل قبيح وباطل عقلا .

قبح هذا التقليد :

المقلد بهذا اللون اما أن يقلد الكل أو يقلد البعض ، فان قلد الكل لزم الجمع بين المتناقضين ، ولزم فيه أن يكون الشيء مع نقيضه . وبعبارة اخرى : يكون الحق في الشيء ونقيضه .

مثاله : ان للانسان آباءاً منهم مثاليون ومنهم ماديون ، ولو فرضنا أن أحدهم قلد آباءه في المثالية والمادية ، فلو قلنا بصحة هذا التقليد لاجتمع المتنافيان المثالية والمادية - وبعبارة اخرى : اجتمعت المثالية واللامثالية -

---

(١) اقتدى به : اذا فعل مثل فعله تأسياً .

وهذا باطل ، لان المتناقضين أمران وجـودي وعدمي ، يعني عدم لذلك الوجود ، وهما لايجتمعان , كقولك « هذا مثالي ولامثالي » ، ولايرتفعان كقولك « هذا لامثالي ولا لامثالي » ، وذلك معلوم بالبداهة العقلية .

فاذاً لابد من الرجوع الى العقل وموازينه وبراهينه ، وعدم قبول قول الغير من غيردليل وبرهان ، كما فعل الماديون بالنسبة الى مواليهم ، فانهم قلدوهم تقليداً أعمى بايمانهم بالمادة والعوامل المادية ايماناً مطلقاً ، وبذلك أخذوا ينكرون الروحانيات نكراناً تامـاً ، ولا يقيمون وزناً لكل ماهو روحي أو مثالي أو شعوري أو عاطفي سامي .

ونتيجة لتقليدهم للغير أخذوا يعتقدون بأن جميع الظواهر الطبيعية تدرك وتلمس بصورة محسوسة .

ومن جملة المادين الماركسيون الذين ظهروا فيالاونة الاخيرة، وتمشدقوا بأن النظرية المادية من خلق سيدهم ماركس وجماعته ؛ وهذا التاريخ يلقمهمحجراً ويكذبهمويثبت قدم النظرةالمادية ، فأين هم منها؟.

قدم النظرة العادية :

وهذه النظرة غير مستحدثة كمـا ادعاه الماركسيون ، بل النظرة المادية للكون قديمـة جداً منذ انبثاق الفلسفة اليونانية ، وقد جاءت في تفكير الفلاسفة « ديمقرطيس » و « هرقليطس » . وأصحاب « المذهب الذري » والتفكير المادي يصرون على القولبأن الحياة مادة ومادة فقط

بدون أي دليل واضح وبرهان لائح .

والعجب كل العجب أنهـم يقلدون جانباً واحداً ـ وهو الجانب المادي ـ من دون ترجيح يرجح لهم ذلك ، وليتهم قلدوا الجانب الاخر ـ وهو الجانب المثالي ـ لئلايقعوا في الجمود وهم دعاة «التقدم» المزيف.

وعلى أي حـال التقليد ان كان كلياً ـ أي تقليد الكل ـ فهو غير جائز ، لانه ان قلد الجميع جمع بين الحق والباطل في آن واحد وهو خلاف ، وان قلد البعض دون البعض الاخر فلابد له من دليل والا انتقد على تفضيله البعض على البعض بلا مرجح . وهذا ما يسميه المتكلمون ترجيح بلامرجح ، مع أنا نرى العظماء والفلاسفة يهملون التقليد ويلتزمون بالبحث عن ماوراء الطبيعـة ـ الميتافيزيق ـ كمـا هو ديدنهم ، ويحثون طلاب الحقائق عليه حتى لا تفوتهم شاردة أو واردة .

الحث على الميتافيزيق :

وهنا نرى سيدالموحدين أميرالمؤمنين عليه السلام يصف طاوساً ، ويدعو في وضعه الى النظروالتفكير والتدبر والاستدلال ، فيقول « ترى بريشه ألـواناً كثيرة منتسقـة ، فالعجب والدهش أن الكل يتغـذى من جسم واحد » ثم يتساءل عليـه السلام « ما الذي أوجد كثرة تلك الالوان في ريشه ببديع جمالها ؟ » .

أنظر الى الامام عليه السلام كيف يتكلم بصورة التساؤل ، وبهذا الشكل من الحديث يدفع الانسان ويحثه على « الميتافيزيقيا » ـ أي البحث عن الجوهر ـ .

أنظر اليه عليه السلام كيف يدعو الانسان الى تقليب وجوه الفكر لأخذ النتيجة الصحيحة ؛ فانه يقول « فان شبهته بما أنبتت الارض قلت جنى من زهرة كل ربيع فهو كالازاهير المبثوثة ، واذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية ، وتارة خضرة زبرجدية ، وأحياناً صفرة عسجدية » .

يريد الامام عليه السلام بهذا اللون من التقلب الفكرى وبشكل استدلالي غير تقليدي ، أن يوصل الانسان الى علة العلل ويعرفه العلة الفاعلية ، فلا يجوز معرفته جل وعلا شأنه بالتقليد .

الوصول الى الجوهر :

وعلى هذا تتبع الفلاسفة الأشياء لمعرفة أصولها ، حتى وصلوا الى كائن روحاني هو « جوهر واحد » غير قابل للتجزئة ، وهو بمثابة ذرة جسمية .

الوحده الجوهرية :

والجوهر دائم بالرغم من التغييرات التي تمر به ، فهو وحدة

جوهرية لاجسمية . والفرق بين الوحدة الجوهرية والوحدة الجسمية هوأن الوحدة الجسمية موجودة متحيزة (١) ، والوحدة الجوهرية موجودة لا في موضوع ، وتسمى « مونادا » ، وهي لفظة يونانية معناها الوحدة الجوهرية فيالنفس ، قالها ليبنتزلاول مرة عام ١٦٩٧ ، وسماها جوردانوبرونو « موناس » ، وبعضهم سمى الخالق جل وعلا « مونادا المونادات » .

وهذه المونادا ـ أي الوحدة في نفس الانسان ـ هي المدركة وذات النزوع ، ومعنى النزوع أنها حاصلة على ميل يدفعها الى أن تمر من ادراك الى ادراك آخر الى أن تصل الى المونادا ، أي الوحدة الاخيرة التي تتصل بها جمع المونادات ، أي الوحدات ؛ وهي الوحدة الاولى التيتتفرع منها الوحدات . ثم هيمن فيض وخلق « مونادا المونادات » على ماسموه ذلك الوجود الذي ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود ، يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

---

(١) اى قابلة للابعاد الثلاثة .

الايمان والاسلام

« قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » .

(سورة الحجرات : ١٤)

لقد تقدم فيما سبق أن الانبياء ـ وهم مائة وأربعة وعشرون ألفاً ـ كلهم نادوا بوجوب واجب الوجود، وبشروا بالثواب والجنة، وأنذروا عن العقاب والنار ، وقدقابل جماعة بالجحودبكلماجاء به الانبياء عليهم السلام . فهذا وذاك يسبب الخوف عند الانسان ويجعله مستسلماً أمام الواقع قائلا : أقر بوجوب واجب الوجود وبما جاء به الانبياء عليهم السلام ، فان صدقوا فيما قالوافأنا ناج وان كذبوا لم أكن أخسرباقراري هذا شيئاً . .

أسلم الاعراب :

وعلى هذا المنوال عملت الاعراب حيث استسلمت خوفاً من السبي والقتل وقالت : آمنا . ثم قيل لهم : قولوا أسلمنا . ولفظة «أسلم» فرد خاص من الاستسلام ، لان الاستسلام عام ويأتي في كل الامور .

الاسلام :

والاســلام هو استسلام خاص لمبدأ معين وهو المسمى بـ« مبدأ الاسلام » ؛ والواضح كل الوضوح في الايـة الكريمة أن هناك فرقاً بين الاســلام والايمان ؛ لان كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم بمؤمن ؛ فبينهما عموم وخصوص مطلق ـ على حد تعبير المنطقيين (١) .

وهل الاسلام أو الاستسلام ينجي الانسان من العذاب ؟ .

كلا ، لان المستسلم ليس له ثواب ، و كل من ليس له ثواب مع اتصافه بشرائط التكليف ـ وهي أن يكون حياً بالغاً عاقلا ـ فهومستحق للعقاب باجماع كافة العلماء الاعلام .

لابد من حجة :

فعليه لابد من ذكر الاشيـاء التى لا يمكن جهلها على أحـد من المسلمين ، ومن جهل شيئاً من تلك الاشياء خرج عن كونه مؤمناً واستحق

---

(١) لايخفى أن العموم والخصوص المطلق يتكونان من موجبة كلية وموجبة جزئية ، فالموجبة الكلية كقولك « كل ايمان اسـلام » أو « كل مؤمن مسلم » ، والموجبة الجزئية كقولك « بعض الاسلام ايمان » أو « بعض المسلم مؤمن » ، والكل والبعض يسميان « سور القضايا » ، فالكل سور القضية الموجبة الكلية ، والبعض سور القضية الموجبة الجزئية .

وهناك سوران آخران هما : « لا شيء » للقضية الكلية السالبة ، و « ليس بعض » للقضية الجزئية السالبة .

العقاب الأليم .

والمستسلم عاجزعن امعان النظرواقامة الحجة والبرهان ، والايمان لايتأتى الابامعان النظروالحجج والبراهين ، فمن لاحجة له لاايمان له .

الايمان لغة وشرعاً :

الايمان لغة هو التصديق ، والتصديق هو اذعان النفس للشيء ، وهذا لا يتأتى الا من تصورات ثلاث هي : الموضوع ، والمحمول ، والنسبة بينهما .

ومثال ذلك « زيد قائم » ، فيلزم تصور الموضوع وهو « زيد » ، وتصورالمحمول وهو « قائم » ، وتصور النسبة بينهما ثم الحكم بالنفي أو الاثبات . هذا ما يسمى بـ« التصديق » .

وأماالايمان شرعاً فله عدة تعاريف كما توصل اليه الاعلام ، وذلك بعد اتفاقهم على الحقيقة اللغوية :

الاول ـ « الايمان هو من أعمال القلوب » أي هي عبارة عن نفس التصديق بالله تعالى ورسوله ، وبما جاء به الرسول مما علم بالضرورة ، بدليل قوله تعالى « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (١) . وهنا مراحل ثلاث هي :

---

(١) سورة الرعد : ٢٩ .

١ ـ الخارج عن طاعة الله تعالى مع التصديق المذكور سلفاً ، ويسمى « فاسقاً » .

٢ ـ مظهر التصديق مع ابطانه خلافه ، ويسمى « منافقاً » .

٣ ـ مظهر عدم التصديق ، ويسمى « كافراً » .

الثاني ـ « الايمان من أعمال القلوب مع الاقرار باللسان » ، بدليل قوله تعالى « ولما يدخل الايمان في قلوبكم » (١) .

الثالث ـ « الايمان مع أعمال الجوارح » بدليل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى » (٢) . وهذا على ثلاثة أقسام :

١ ـ التلفظ بالشهادتين ، وهو عمل جارحي .

٢ ـ التلفظ بالشهادتين مع العمل بالاركان ، كالصوم والصلاة وما أشبه ذلك .

٣ ـ التلفظ بالشهادتين والعمل بالاركان مع ترك ما يجب تركه .

الرابع ـ « الايمان من أعمال القلوب والجوارح معاً » ، فهو عبارة عن التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالاركان ، بدليل قوله صلى الله عليه وآله : « الايمان ما استقر في القلب وأقصي به الى

---

(١) سورة الحجرات : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٨ .

الله ، وصدقه العمل لله عزوجل والتسليم لامره » .

بعض أقوال الملحدين :

وعلى أي تقدير فالايمـان متوقف على تدبر وتفكر ، وحـري بالانسان أن يتدبر في كل مايراه ليكتشف الحقيقة والواقع حتى لايكون مسلماً مقلداً ، بل يكون مؤمناً معتقداً .

وعليه أيضاً أن ينظر فيماقاله الملحدون ، ليلاحظ تلك الموهومات التي جاءوا بها ، كأقوال بعضهم « ان الطبيعـة هي المكونة للاشياء » ؛ في حين أنك ترى أن الطبيعة ليس لها عقل ولا قدرة ، والمكون يجب أن يكون عالماً قادراً .

وقالوا « ان ما لايدرك باحدى الحـواس فهو غير موجود » ، في حين أنا لا ندرك عقل وفكرماركس وانجلس وانشتاين وداروين وفرويد ومن كان على شاكلتهم ؛ لاندرك عقول هؤلاء باحدى الحواس الخمس ، بل وحتى أنفسهم لم يروا العقل والفكر . . اذاً كيف فكروا وعقلوا الأشياء .

وقالوا بالصدفـة ، والصدفة ليس معناها أنها تقـع بلا علة ، بل معناها أنها تقع بعلة غير مألوفة .

مثلا : المألوف حر الهواء في الصيف ، فاذا هبت زوبعة جليدية من ناحيـة القطب صارت سبباً لبرودة الهواء . فهذا حادث بالصدفة ،

مع أنا نرى علته . ولو سلمنا جدلا أن الصدفة تقع بلا علة فوقوعها أحياناً جائز لا أنها تقع وتبقى على طول الخط .

ولو بقي الشيء منظماً متقناً في تنظيمه لا يقال عنه صدفة ، وليس من المعقول أن مجيء الليل صدفة وذهابه صدفة ، وشروق الشمس صدفة وغروبها صدفة ؛ ونمو النبات صدفة واكله صدفة . . ثم تكرر هذه العمليات آلاف السنين كلها بالصدفة ليس الا . اذاً لا صدفة في صنع وتدقيق وتصنيع هذه الكائنات .

وبعد التدبر في هذه الامور وما شاكلها ، يؤمن الانسان بأن هناك مكون عالم قادر ، وموجود أزلي يدرك بالاثار ، وصانع حكيم لا منازع له في شيء من أمره ولا كفؤ له يعادله ، ولا ضد له ينازعه ، ولا سمي له يشابهه ، ولا مثل له يشاكله ، أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ـ أي الايمان به ـ وكمال التصديق به توحيده . فمن صدق ووحد فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

الله ولله وبيد الله

« قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون * قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون » .

(سورة المؤمنون : ٨٦ – ٨٨)

ان وقف الانسان ملياً أمام هـذه الايات الثلاث المصاغة بصياغة الاستفهام التقريري لحار واحتار واعترته حالة يكاد يغشى عليه منها .

ماهو الجواب ؟ وبماذا يجيب ؟ لمن الارض ومن فيها ؟ الخلائق تموت والكائنـات تفنى فمن الذي يملك ؟ من رب السماوات السبع ؟ من رب هذا الفضاء اللامتناهي ؟ من رب هـذه العوالم اللامتناهية ؟ من رب هذه الاجواء الوسيعة ؟ من رب هذه الذرة الصغيرة ؟ من رب الحب والنوى ؟ من رب الجزء الذي لا يتجزأ ؟ من بيـده ملكوت كل هـذه الاشياء ثم هو يجير ولا يجـار عليه ؟ يجير الكائنـات ؛ يجير الخلائق ، يجير السماوات ، يجير الارضين ، يجير العوالم كلهـا بما فيها ، يجير

الحب والنوى ، يجبر الجزء الذي لا يتجزأ ، يجبر كل ما سـواه ولا يجار عليه . .

أجب ايهاالانسان ان كنت تعلم ، وأطرق برأسك ان كنت لاتعلم.

فان كنت تدري فتلك مصيبة وان كنت لاتدري فالمصيبة أعظم

ثم فكرأيها الانسان وأنعم النظرحتى يتجلىأمامك الحق الحقيق، وهناك يهتف ضميرك وهـو على قمة الواقع ليقـول « الله . . ولله . . وبيد الله » جواباً عن الأسـئلة الثلاثة ؛ وهو الواجب الوجـود الذي يثبت الوجود لذاته تعالى .

أقسام الوجودات :

الوجودفي الخارج اما أن يكون أزلياً أو غيرأزلي ، وغير الازلي فهو ـ على سبيل منع الخلو (١) ـ منحصر في أحد أقسام ثلاث ، هي :

أ ـ امكان وجود بعض الموجودات بدون موجد .

---

(١) منع الخلـو هو ماحكم فيه بتنافي طرفيه أو عدم تنافيهمـا كذباً لا صدقاً ، بمعنى أنه لايمكن ارتفاعهما ويمكن اجتماعهما فيالايجاب ، ويمكن ارتفاعهمـا ولا يمكن اجتماعهمـا فى السلب . مثاله « اما أن يكـون الجسم فى الماء أو لا يغرق » ، فانه يمكن اجتماعهما بأن يكون فى الماء ولا يغرق ، ولكن لايخلو الواقع من أحدهما لامتناع أن لا يكون الجسم فى الماء ويغرق . هذا فى الايجاب ، وأما فى السلب فمثاله « ليس اما أن يكون الجسم ابيض واما أن يكون أسود » ، ومعناه أن الواقع قد يخلو من أحدهما وان كانا لايجتمعان .

ب ـ الموجد للوجود هو من جنسه ويحكم بحكمه .

ج ـ هناك موجود أزلي خلف المادة مغاير لها ، وهو الموجد .

ولو فرض له قسم رابع ـ وهو الصدفة كما قيل ـ فهو يرجع الى أحد الاقسام الثلاث المذكورة ، لانها اما أن تكون من الوجود أو العدم ، فان كانت من الوجود فاما أن تكون من جنس الوجود أو من الموجود ما وراء الطبيعة .

ولو قيل بأن الصدفة ليس لهاعلة فالكلام يرجع الى أحدالفرضين السابقين ، وهو الموجد للوجود هو من جنسه ويحكم بحكمه . ولوقيل ان الموجد هوالعدم فالعدم لايوجد ، لان الاصل المسلم العلمي والقاعدة الاساسية تقول «فاقدالشيء لايعطي» . ولوقيلان الموجدهوالقوة والقوة هي التي تسمى « الله » فمن الموجد لها ؟ اذكل موجد (بالفتح) يحتاج الى موجد (بالكسر) ، لان المعلول لا يمكن أن يكون بلاعلة ، ولكن الموجوديمكن أنيكونبعلة ويمكن أنيكونأزلياًوبلاعلة ـ كماقررسابقاً .

والنسبة بين الموجد (بالفتح) والموجود العموم والخصوص المطلق ، حيث أن كل موجد موجود ولاعكس ، يعني أن بعض الموجود موجد وبعضه غيرموجد ؛ وهوالذي نسميه بـ« الازلي » ، ولوأن يكون هذا البعض فرداً واحداً ، وهو واجب الوجود .

ولو قيل ان الموجد للوجود هو نفسه ، فلا يخلو اما أن يكون الوجود قبل الايجاد موجوداً أو معدوماً ، فان كان موجوداً وموجوداً

وهكذا فهو أزلي لا يحتاج الى موجد ، سواء هو يوجد نفسه أو غيره يوجده . وان كان معدوماً فكيف يمكن للعدم أن يوجد ، وفاقد الشيء لا يعطي كما قلنا .

وبهذا يثبت أن الموجد للوجود ليس من جنسه وهو الفرض الثاني ، ويمكن وجود بعض الموجودات بدون موجد وهو الفرض الاول . اذاً فهناك موجود خلف المادة مغاير لها بدون موجد وهو الفرض الثالث ، ولا محالة أنه الموجد للموجودات .

ماوراء الطبيعة :

ولو قيل : ان ماوراء الطبيعة لن يتصور ولن يحس باحدى الحواس الخمس .

يقال : ان عدم التصور والحس بالحواس الخمس لا يدل على عدم الوجود خارج نطاق الحواس ، فان الحواس الخمس تحس الماديات فقط ، وأما الحس بما وراء المادة فمنوط بالعقل والفكر .

وواجب الوجود مفهوم عقلي مقره (١) الذهن ؛ والمقصود بيان أن لهذا المفهوم الذهني فرداً واقعياً ثابتاً في الخارج مطابقاً لما في الذهن . لذا عدل بعض الاعلام من المتكلمين عن عبارة « اثبات واجب الوجود »

---

(١) أي مقر المفهوم .

الى عبارة « اثبات الصانع » للتنبيه على أنه انما يمكن الاستدلال عايه تعالى من حيث صانعيته للعالم ومبدأيته له ، اذ لا سبب له تعالى ليستدل بذلك السبب عليه -جل وعلا- بطريقة البرهان اللمي ، وهو الاستدلال بالعلة على المعلول ، وذلك لانـه موجود بلا علة ، فانحصر طريق اثباته على البرهان الاني ، وهو الاستدلال بالمعلول على العلة والمصنوع على الصانع.

وقصارى ما يفيد العلم بالمعلول هو العلم بالعلة من حيث أنها علة وان لم تدرك ذاتها ، كمـا أن مصنوعاته تعالى تدل على الصانع من غير أن نعرف حقيقة ذاته ، فانها أرفع وأجل من أن تتلوث بالخواطر .

قال الامام أبو جعفر الباقر عليه السلام : تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله ، فان الكلام في الله - أي في كنه ذاته - لا يزداد صاحبه الا تحيراً .

« ولله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير » (١) .

« ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين » (٢) .

---

(١) سورة المائدة : ١٨ .

(٢) سورة المؤمنون : ١٠٩ .

النظر فى الافاق

« سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

(سورة فصلت : ٥٣)

لو فسح المجال للانسان أن يشك في كل شيء لا أظن أنه يفسح له المجال أن يشك في نفسه بأنه هل هو موجود أم لا . مثل هذا الشك باطل بداهـة ، لانـه من المحال أن يكون غير موجـود وتصدر منه الموجودات المرئية والمحسوسة : فالمرئية كهذا القصر المشيد وهذا المعمل الضخم وما أشبه من الاشياء الخارجية ، والمحسوسة كهذا العمق في التفكير ووضع بعض الاسس المنطقية وما أشبه من الاعمال الذهنية التي تعرف بآثارها في الخارج .

ليس من المنطـق السليم ولا المعقول صدور مثـل هذه الاعمال الذهنية والخارجية ممن ليس بموجود . اذاً لاشك في أنه موجود بالضرورة.

والان وبعد ثبوت الموجود بالضرورة لنرى هل هذا الموجـود كان ولم يوجده شيء ، أو لم يكن وهو أوجد نفسه ، أو لم يكن وأوجده

غيره ؛ ولو كان كذلك فما هو ذلك الغير ؟ .

ولاجل الخوض في البحث وأخذ النتيجة الصحيحة ينبغي أخذ الخطوات الاتيـة ، وذلك لان من غرائز الانسان الكامنـة في نفسه حب الاستطلاع ، خصوصاً عند تحري الحقيقة بمقياس الفطرة والادلة ، فنقول :

أ ـ نجري قاعدة التحليل . مثلا : الانسان يحلل الى جزأين هما الحيوانية والناطقيـة . فالانسان مركب ، والمركب يحتاج كل جزء منه الى الجزء الاخر ليكمل ، والاحتياج دليل العدم ، لان المعدوم يُحتاج اليه . ثم ان هذا الانسان يموت فيستحيل تراباً ، وهذا التغيير دليل على حدوثه ، لان كل متغير حادث . اذاً فالانسان في المثال وكل موجود مثله لم يكن موجوداً أزلياً بدليل تغييره ، وهو واجد لنفسه بدليل احتياجه ، لان المحتاج فاقد والفاقد لا يعطي . وهذا الموجود يسمى ممكناً ، يعني يمكن وجوده وعدمه . وبعبارة اخرى : كان معدوماً ثم أوجده صانع موجد.

ب ـ ان لم تقتنع بهذا وتقول : لابد من أن الموجود هو أوجد نفسه بنفسه .

فهذا معنـاه توقف وجود الموجـود على نفسه ، وهذا ما يسمى بالدور ، وهـو معنى توقف الشيء على نفسه ، وهذا الدور يكون على قسمين :

١ ـ الدور الصريح ، وهو توقف الشيء على نفسه بلا واسطة .

مثل توقف الشمس على النهار والنهار على الشمس ، تقول «كلماطلعت الشمس فالنهار موجود ، وكلما وجد النهار فالشمس طالعة » .

٢ ـ الدور المضمر ، وهوتوقف الشيء على نفسه بواسطة أوعدة وسائط ، تقول « ألأثنان هما الشيئان المتساويان الأثنان » .

والدوربالنسبة الى الموجودالممكن باطل ، لانه لا يُعقل أن يكون قبل أن يكون ، لوجوب تقدم العلة على المعلول بالضرورة .

ج ـ وان قيل ان الموجود الممكن يوجدمن موجود ممكن قبله ؛ هذا لا شك فيه ولكن الى متى هذا الموجود الممكن السابق يوجد هذا الموجود الممكن اللاحق ، وهل للسابق نهاية أم لا ؟ .

مثلا : النخلة من النواة والنواة من النخلة السابقة وهلم جرا ؛ والولد من أبيه والاب من الجد وهكذا دواليك ، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة السابقة والى مالا نهاية . فالاول في المثال من النخلة والولدوالدجاجة موجودات ممكنة محتاجة الىسابقتها ، وكذلك كل فرد من السلسلة الى آخر نخلة أو نواة ودجاجة أو بيضة وولد أو أب .

فمن أوجد هذه الاواخر الثابتة الامكان الممتنعة الوجود لذاتها ؟ فلابد من صانع موجود واجب بالذات . ولابدمن بطلان التسلسل الدافع بالفكر الى وادي التيه والضلال .

د ـ والان وبعدثبوت بطلان الدور والتسلسل بالضرورة ، فلنفرض أن الموجود الاول المؤثر في جميع الموجودات والصانع لها جميعاً هي الطبيعة ، فهنا نورد أسئلة ونجيب عنها بطريق اللف والنشر والنقض والابرام والدخل والدفع ، فنقول :

الاسئلة والاجوبة :

س ١ : ما هي الطبيعة ؟

زعموا أن الطبيعة جوهر الا أنها غير قائمة بنفسها . وعلى هذا تكون الاعراض كلها طبائع وجواهر لانها لا تقوم بأنفسها ، وهذا بديهي البطلان .

قال يحيى النحوى : ان الطبيعة قوة تنفذ في الاجسام وتدبرها . وهذا يلزم اجتماع التضاد والنقيض ، لان من الاجسام هوالانسان الذي يحمل الحب والبغض والارادة والكراهة والغضب والرضا ، فهذه وما أشبهها كلها من التضاد والتناقض ، فان كانت من فعل الطبيعة التي حددها بالقوة لكانت مجمع التناقضات ، وهذا بديهي البطلان . مضافاً الى ذلك أن هذه الصفات وما أشبهها هي من حالات النفس ، فأين الطبيعة ؟ الا أن ينكروا النفس ، وذلك حمق .

س ٢ : هل الطبيعة موجودة ؟

قال الحكيـم ارسطوطاليس (١) في كتابه « السماع الطبيعي » : ان الطبيعة لا تحتاج الى دليل ، لظهورها واعتراف الناس بها واقرارهم بوجودها .

فأجابه الفيلسوف ابو بكر محمد بن زكريا الرازى : بأن الشيء لا يصح لاقرار الناس به كما لا يفسد لاختلافهم فيه ، ولو كان حقاً لاقرار من أقر به لكان فاسداً باطلا لامتناع من امتنع منه ، فيكون الشيء فاسداً صحيحاً في حال ، وباطلا حقاً في حال ، وهذا محال .

س ٣ : من أين هي الطبيعة ؟

قال الحكيم ارسطوطاليس : ان الطبيعة ألهمت بالحكمـة من قبل النفس ؛ وهي مبثوثة في العالم (٢) .

نقول : ان سلم بهذا القول فلازمه أن الموجود الاول هو النفس لانها ألهمت الطبيعة ؛ وبهذا تبطل أولوية الطبيعة .

س ٤ : هل الطبيعة مدركة ؟ .

---

(١) ارسطوطاليس بن نيقوماخوس ، من متأخرى حكماء اليونان ، وهو الملقب بالمعلم الاول من اهـل اسطاخرا والحكيم المطلق عندهم ، مولده فى السنة الاولى من ملك اردشير بن دارا ، تلقى من افلاطون نيفاً وعشرين سـنة ، وهو واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة الى الفعل ، لذا سمى « المعلم الاول » .

(٢) هذا الرأى وما شابهه من المذهب الافلاطونى مؤدب ارسطوطاليس.

أجمع الطبيعيون على أنها موات غير حية ولا حساسة ولا مدركة ولا قادرة ولا مختارة ولا عالمة. وقول المرء حجة على نفسه، فنلزمهم بما قالوا.

س ٥ : هل للطبيعة عقل؟.

قال الفيلسوف فرفوريوس ـ وهو على رأي ارسطوطاليس وشارح كلامه ـ : ان الطبيعة تفعل بغير فكر ولا عقل ولا ارادة، ولكنها ليست تفعل بالبخت والاتفاق والخبط.

أقول : ماالمجوز لما لايعقل ولا يفكر وليس له ارادة أن يفعل المعقولات، أليس هذا من التناقض الفضيع؟!.

س ٦ : هل الطبيعة مدبرة نفسها فضلا عن تدبير الكائنات؟.

لم نجد أحداً من الطبيعيين يدعي هذا الادعاء ـ وهو تدبير الطبيعة نفسها ـ فكيف يجوز لها تدبير الكائنات مع ما انهم يقولون انها من الهام النفس.

وعلى حد قولهم هذا لماذا لاتكون النفس هي التي تعمل ماينسبونها للطبيعة، ثم يسمون ـ هم ـ « النفسيون » بدل « الطبيعيون ».

س٧ : هل الطبيعة حكيمة؟.

نعم وصف الحكيم فرفوريوس الطبيعة بأنها لا تفعل الا ماله نظم وترتيب وحكمة، وقد تفعل شيئاً من أجل شيء.

أقول: ان هذا الوصف لايوصف به الا الحي الحكيم القادر المختار، في حين أنهم ينكرون كل ذلك على الطبيعة ، وهاك أقوال بعضهم :

« ان الطبيعة تفعل بغير عقل ولا فكر » .

« ان الطبيعة لا تفعل ولا تقصد ، وانها ابتداء حركة » .

« ان الطبيعة غير حكيمة وانها تفعل لا بقصد ولا ترتيب » .

« ان الطبيعة تفعل بغير قصد » .

ان هذه الأقوال وما شاكلها تدل دلالة صريحة على أن الطبيعة غير حكيمة ولاقاصدة ولاعاقلة ولامدبرة . ثم نرى الطبيعيين يناقض بعضهم البعض ، ولكل من هؤلاء أجوبة شافية كافية ذكرت في الكتب الفلسفية الكبرى ، نعرض عنها هنا لاستغنائنا بما هو محل الحاجة .

س ٨ : هل الطبيعة تعطي الحركة للمتحرك والسكون للساكن في آن واحد ؟ .

ان قال الطبيعيون ان الطبيعة تعطي الحركة والسكون في آن واحد فقد ناقضوا وهو محال ، وان قالوا تعطي الحركة في زمن وتعطي السكون في زمن غيره ، قلنا ان كانت هي بنفسها ووحدتها تقوم بهذا العمل فلازمها أن جميع الأشياء تتحرك دفعة وتسكن دفعة ، وهذا مايكذبه الواقع بالفعل .

وان قالوا بالتعدد ـ بأن الطبيعة المحركة غير الطبيعة المسكنة ـ

فلازمه ان لكل قضية شخصية طبيعة جزئية تخصها . اذن أين الطبيعة الكلية ؟ فلوقيل ان الجزئيات تشكل الكلية ، يقال اذاً الكلية مجمع النقائض ، وهذا ضروري البطلان .

س ٩ : هل حركات الافلاك والكواكب والقوى الموجبة والسالبة ونمو النبات والحيوان وتعاقب الليل والنهار وتقلب الأيام والحياة والموت واستحالة اللحم والعظم تراباً وماأشبه مما لاحد له ولاحصر ، كل ذلك بفعل الطبيعة ؟

بعد ثبوت أن الطبيعة لاتعقل ولا تفكر ولا تدبر ولا تحرك ولا تسكن ولا . . ولا . . الخ . هل يمكن أن ننسب اليها ما جاء في السؤال التاسع من حركات الأفلاك والقوى والنمو والتعاقب وكل هذه الامور الجسام العظام ، أو يمكن أن ننسب اليها أقل من ذلك بكثير ؟ ؟ .

مثلا : هل تتمكن الطبيعة من أن تركب خلية واحدة من مليارات الخلايا في الكائن الحي ـ نعوذ بالله من الجهل الذي ينزل بصاحبه حتى يرى تركيب الخلايا من فعل الطبيعة الجاهلة العاجزة .

تركيب الخلية :

واليك تركيب الخلية ليتبين لك أنه من صنع عالم قادر لا جاهل عاجز :

قال علماء النفس الفيزيولوجيون : ان كل خلية يحيطها جـدار (*Membtane*) ويوجد داخل هذا الجدار السايتوبولازم (*Cytoplasm*) وهـو مادة جلاتينية تحيط بنواة الخليـة (*Nvcieys*) وفي نواة توجـد الكروموسومات (*Chromosomes*) التي تحتـوي على تراكيب تعرف بالجينات ، والجينات هـذه غير مرئيـة عادة حتى تحت أشـد المجاهر قوة ، والجينات لدى بعض الكائنات الحية كانت مرئية تحت المجهر . ويعتقد بأن عمل الجينات كيمياوي ، وهي بمثابة العوامل المساعدة التي تؤثر في المادة المجاورة دون أن تتعرض هي ذاتها لاي تغيير .

تحتوي كل خلية انسانية على (٤٨) كروموسوماً ، وتكون هـذه الكروموسومات عندالانثى مرتبة على شكل (٢٤) زوجاً ، أما عندالذكر فهنالك ثلاث وعشرون زوجاً من هذه الكروموسومات مع كروموسومين سائبين ، يطلق على أحد هذين الكروموسومين السائبين (Y) وهو موجود عند الذكر فقط ، أما الكروموسوم السائب الاخر فهو كروموسوم (X) ، ويحتوي كل من هذه الكروموسومات الثمانية والاربعين على عدد كبير من الجينات .

الطبيعة لا تعمل :

أيها المطالع الكريم أنظر الى هـذه الخلية الواحدة من الخلايا

الموجودة في الكائنات الحية وقدرصنعها وضبطها واتقانها ثم أحكم ؛ هل تصدر هذه كلها من الطبيعة الصماء الخرساء ؟ .

أنا واثق من أن ضميرك يهتف : كلا ، ثم كلا . .

اذاً كيف يمكن الرضـوخ لعاقل أن يفسح المجال لمثل هـذه الخرافات ـ خرافة أن الطبيعة تعمل في الاشياء ـ أن تطرق باب ذهنـه فضلا عن الدخول فيه .

بل كيف يجوز للانسان العاقل أن يشغل نفسه بما لايزيده الا بعداً عن الحقيقة والحق ؟ .

نعم .

انانقول انجميع الموجودات تجري علىسنتها الطبيعية الخاصة .

فمن الطبيعي أن النارتحرق ، والماء يروي ، والخبزيشبع . . وهكذا في كل الامور .

قال رسول الانسانية صلىالله عليه وآله وسلم : « أبىاللهأن يجري الامور الا بأسبابها » .

وقدثبت في الفلسفة محالية انفكاك المعلول عن علته ؛ فكلالاشياء ـ بما فيها الطبيعة ـ معلولة تحتـاج الى علة ، وعلة العلل هو الموجود القائم بذاته الذي :

«لاتدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق

الايمان ، قريب من الاشياء غير ملامس ، بعيد عنها غير مباين ، متكلم بلا رؤية ، مريد لا بهمة ، صانع لابجارحة ، لطيف لايوصف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقة ، تعنو الوجوه لعظمته ، وتجب القلوب من مخافته » .

سبحان الله المتعالي الجبار . . .

« هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافي السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم » .

(سورة الحشر : ٢٤)

الصفات الثبوتية

قبل البحث

قبل الخوض في البحث الذي نروم بحثه لابد أن نعرف الحدود التامة للكلمات التي ستدور في البحث كثيراً ، وذلك لكي نمهد للدخول في الصميم :

والكلمات التي سنشرحها هي : الثبوتية ، السلبية ، القادروالمختار ، الموجب ، العالم ، المحدث (بفتح الدال) ، القديم ، الجسم ، الحيز ، المكان ؛ الجهة ؛ الحركة ؛ السكون .

الثبوتية : هي الصفات الوجودية ؛ ويقال لها الكمالية والاكرامية أيضاً .

السلبية : هي الصفات العدمية ؛ ويقال لها التنزيهيـة والجلالية . ولا ريب أن الوجود أشرف من العدم ولذا يبتدأ بالثبوتية .

القادر والمختار : أي ان اراد الفعـل فعل وان اراد الترك ترك ؛ ويكون فعله للشيء أو تركه له عن قصد وارادة .

الموجب (بالكسر) : أي لا ينفك عنه معلوله ؛ كالاشراق للشمس والاحراق للنار .

العالم (بالفتح) : وهو السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما ومافوقهما وماتحتهما من المرئيات والمجردات ؛ وقيل كل موجودسوى الله تعالى .

المحدث (بالفتح) : ما سبق وجوده العدم أو غيره .

القديم : مالم يسبق وجوده غيره ولا العدم .

الجسم : مايقبل القسمة في ثلاث جهات ، الطول والعرض والعمق .

الحيز : هو الفراغ المتوهم الذي تشغله الأجسام بالحصول فيه .

المكان : ما يستقر عليه الجسم .

الجهة : هي الفراغ الذي يشغله الجسم .

الحركة : هي حصول الجسم في مكان بعد آخر ، وبعبارة أخرى : انتقال الشيء من حال الى آخر في كل آن بعد آن ومكان بعد مكان .

السكون : بقاء الشيء على حال واحد اكثر من زمن واحد .

قادر مختار

« وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » .
(سورة القصص : ٦٨)

في المحاضرات السالفة تكلمنا بطريق العقل والنقل بما فيه الكفاية ـ على ما أعتقد ـ لاثبات وجود الخالق جل وعلا ذكره ، وذلك لمن أنصف وأراد الوصول الى الحق والواقع . وأثبتنا كذلك أن ليس للطبيعة ولا الصدفة ولا أي شيء آخر حظ من التدخل بالوجود والعلية ، وانما هي جميعاً معلولات تحتاج الى العلة الموجدة لها . وأما من أعمى الله قلبه فلايجدي معه دليل ، حتى لو أتي اليه بعصي موسى أو يده البيضاء .

وبعد هذا كله وثبوت واجب الوجود لذاته يجب على المكلف أن يعرف صفاته عز اسمه من ثبوتية وسلبية .

وأولى تلك الصفات أنه تعالى « قادر مختار » ، ويدل على ثبوتها كثير من الايات القرآنية ، ومنها قوله تعالى :

« أوليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم » (١) .

« بلى قادرين على أن نسوي بنانه » (٢) .

« يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير » (٣) .

هذه الايات وكثير من آيات أخرى دليل قاطع وبرهان ساطع على قدرته تعالى واختياره لما يريد ، حيث جاء الاستفهام التقريري في قوله تعالى « أوليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم » ؛ فانه تعالى بهذا النوع من الاستفهام أراد أن يأخذ تقريراً من عباده لاتشوبه شائبة شك .

ثم في الاية الاخرى قال تعالى قاطعاً طريق كل من تسولت نفسه التسولات « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ، وبهذا أثبت قدرته واختياره أيضاً فيما يفعل ويشاء .

ثم قال تعالى في آية أخرى : « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » ، وهو رد على الانسان الكافر الذي يجحد البعث والنشور ، وثبيتاً لقدرته التامة واختياره لكل مايريد .

فقوله تعالى « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين

---

(١) سورة يس : ٨١ .

(٢) سورة القيامة : ٤ .

(٣) سورة المائدة : ١٧ .

على أن نسوي بنانه » استفهام انكاري ، ومعناه الانكار على من أنكر البعث والنشور، فقال سبحانه له : أبظن الانسان الكافر أن لن نجمع عظامه ونعيده الى ماكان عليه أولا، ثم قال: ليس : الامر على ماظنه « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » .

قال ابن عباس: يجعل بنانه كالخف و الحافر، فتيناول المأكول بفيه ، ولكنامننا عليه . وقال قتادة : كخف البعير أوحافر الدابة . وقيل معناه : بلى قادرين على أن نسوي بنانه حتى نعيده على ماكان عليه خلقاً سوياً .

والحاصل ان في هذه الآيات وماشابهها دليلا مؤكداً على قدرته تعالى واختياره ، وهو ممايكفي للذهن المستقيم والنفس الصافية التقبل ، ولاشئ أدل على قدرته واختياره من هذا العالم الرحب الوسيع .

حدوث الاجسام والاعراض :

والعالم كما عرفت هو السماوات والارض ومافيهما وما بينهما ، وهذه كلها اما أجسام أوأعراض ، وعلى كلاالتقديرين فان العالم حادث ، بدليل أن الاجسام والاعراض حادثة :

أماحدوث الاجسام فلانها اما ساكنة أومتحركة ـ على ماعرفت من معنى السكون والحركة ـ بمعنى أنه لابد للجسم أن يوضع في مكان ما ، ولابد للمكان أن يكون سابقاً عليه ، وكل ماسبقه غيره فهو حادث .

ثم انه ان لبث الجسم بعد الان الاول في نفس المكان يسمى ساكناً ، وان انتقل فيكون متحركاً . وعلى كل التقادير الجسم لاينفك عن الحوادث ، وكل مالاينفك عن الحوادث فهو حادث بالضرورة .

فان قلت : ان الجسم غير حادث لكنه اجتمع مع الحادث . قلنا بمحاليته ، لان اجتماع الحادث وغير الحادث من التناقض .

والدليل على حادثية الحركة والسكون هو أنه لابد للحركة من حصول مكان جديد للتنقل ، ولابد للسكون من حصول زمان جديد للبث .

وأمـا حدوث الاعراض فلانه لابد للعرض من محل يحل فيـه ، ولابد أن يكون هذا المحل جسماً ، ولما ثبت أن الجسم حادث ، كذلك يثبت أن العرض حـادث بالضرورة أيضاً ، لمحالية اجتماع النقيضين . هذا ويمكن أن يحل العرض في عرض مثله كالسرعة والحركة ، لكنهما يحتاجان الى الجسم لا محالة .

اذا عرفت ماذكرنا اتضح لك أن العالم اما جسم أوعرض ، وكلها حوادث تتصف بالوجـود تارة وبالعدم أخرى ، وكل ماكان كذلك فهو ممكن بالضرورة ، وكل ممكن يحتاج الى مؤثر في ايجاده ، ويجب أن يكون المؤثر فيه ـ وهو الله تعالى ـ قادراً مختاراً .

أما القادرية فلانه لولم يكن قادراً لامتنع عليه الايجاد ، وهو خلاف.

وأما المختارية فلانه لولم يكن مختاراً لكان موجباً ، وهو باطل ،

لان الموجب لايتخلف أثره عنه بالضرورة كالاحراق بالنسبة الى النار ، وللزم أحد أمرين : اما قدم العالم ، أو حدوث الله تعالى .

أما قدم العالم فلان المؤثر فيه ـ وهو الله تعالى ـ قديم ؛ وعلى فرض موجبيته وعدم تخلف أثره عنه بالضرورة ، فالعالم قديم بحكم التلازم بين الاثر والمؤثر الموجب ، وهذا واضح البطلان بالضرورة لثبوت حدوث العالم .

وأما حدوث الله تعالى فلانه ثبت حدوث العالم ، فالتلازم يحكم بذلك ، وهو أيضاً باطل لثبوت قدم الله تعالى ؛ ولما تحقق من أنه تعالى واجب الوجود .

وبهذا يثبت قطعاً أن الله تعالى قادر مختار ، وهو المطلوب .

« ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير » .

(سورة التحريم : ٨)

تعلق القدرة بجميع المخلوقات

« لله ملك السماوات والارض ومافيهن وهو على كل شيء قدير » .

(سورة المائدة : ١٢٠)

لا ريب ولا يخفى أن الله تعالى قادر ، والقدرة بالنسبة الى ذاتـه المقدسة ضرورية وهي عينها . ولقد أثبتنا هذا المعنى فيما مضى بطريق العقل والنقل ، حيث قلنا لو لم يكن قادراً لامتنع عليه الايجاد ، وقد قال تعالى ـ وقوله الحق ـ « انا لقادرون » (١) ، فبقي الكلام في أن قدرته جل وعلا شأنه هل تتعلق بجميع المقدورات على حد سواء أم ماذا ؟ .

لو استدللنا بالاية الكريمـة لحكمنا بالتعلق لعمومية « كل شيء » وللمبالغـة الاخيرة وهي كلمة « قدير » التي جاءت على زنة فعيل ، ولم يكن في العرب من لا يعرف هذا المعنى أو ينكره .

ثم ان قلت ان قدرتـه لا تتعلق بكل شيء على العموم والاطلاق ، قلنا ببطلانه ، لانه لايبقى معنى للقادرية بعد القول بجموده وعدم ابانته .

---

(١) سورة المعارج : ٤٠ .

وان قلت ان القـدرة تتعلق ببعض دون بعض ، قلنا ببطلانه ايضاً ، لانـه ترجيح بلا مرجح . ولانه ما يجعلـه قادراً على البعض هـو الامكان ، والامكان عنده متساو في جميع الاشياء .

توضيح ذلك : ان العلة المحوجة للقدرة والتصرف في المقدور هي الامكـان ، ومعنى الامكان أن كون الشيء قابلا للايجـاد والوجود والانعدام والعدم ، وهذه القابلية موجودة في جميع الممكنات على حد سواء .

ثم ان نسبة ذات الله تعالى متساوية مع الممكنات أجمع ، لانهـا مجردة عن الزمان والمكان والجهة وغير ذلك مما يوجب عليه الحاجة ، ولانـه لا شيء أقرب اليه من آخر ولا أبعد لتكـون القدرة عليه اكثر أو أقل ، وتساوي الممكنات عنده تعالى يلزم تساوي القدرة عليهـا ، وهو المطلوب .

ثم ان الله تعالى كامل ، ولو لم يكن كذلك لاحتـاج ، وهذا ينافي واجبية الوجود ، وقد أثبتنا كماله وعدم احتياجه . وبذلك يثبت كمـال قدرته ، لان قدرته عين ذاته ، ولما كانت قدرته كاملة لابد من تعميمها على جميع الممكنات بالسوية .

وجاء عن بعض كبار المعتزلة أقوال لا بأس باستعراضهـا وردها فيما يلي :

أبو علي محمد بن عبد الوهاب المعروف بالجبائي المتوفى سنة ٢٩٥ ، وهورئيس مذهب الجبائية من المعتزلة ، فانه منع من قدرته تعالى على عين مقدور العبد ؛ فقال : انه لو قدر على عين مقدور العبد لزم اما الترجيح بلا مرجح أو اجتماع النقيضين . وتوضيح ذلك اذا أراد العبد فعلا ولم يرده المولى تعالى ؛ فان وقع فهو ترجيح بلامرجح ، اذ يقال لماذا رجح ارادة العبد على ارادته عز شأنه ، وان لم يقع فقد اجتمع النقيضان حيث ارتفعا معاً ؛ وهما يقع ولا يقع .

والجواب : ان الفرض الذي فرضه الجبائي يصح فيما لوكان (يقع ولا يقع) من فاعل واحد ، أما فيما نحن فيه فلا يصح لانهما من فاعلين ؛ أراد الاول ولم يرد الثاني . نعم لوصدر الفعل من أحدهمابحيثية خاصة ونسب الى الثاني بتلك الحيثية نفسها مع تناقضهما في الرأي كان صحيحاً ، ولكن أين هذا مما نحن فيه ؟ .

أبو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي المتوفى سنة ٣٢١ ، وهو رئيس البهشمية من فرق المعتزلة ، فانه قال بمقالة أبيه ورده كرده .

ابو القاسم عبدالله بن أحمد بن محمود البلخي المعروف بالكعبي المتوفى سنة ٣١٩ ، وهو واستاذه ابو الحسين بن أبي عمرو الخياط رئيسامذهب الخياطية والكعبية ، والكعبي منع من قدرته على مثل مقدور

العبد ، فقال : ان فعل العبد اما طاعة أو سفه ، وكلاهما محال في حق الله تعالى ، لان الطاعة للمطاع ولامطاع بالنسبة اليه تعالى ، والسفه قبيح وهو تعالى منزه عنه .

والجواب : ان الطاعة والسفه صفتان يتصف بهما الفعل ، وهذا لايمنع من كون المولى قادراً ، لان صفة الفعل لا يخص قادرية القادر .

ابراهيم بن سيار بن هانيء النظام المتوفى سنة ٢٣١ ؛ وهو رئيس النظامية ، فانه منع من قدرته على القبيح ، فقال مامعناه : لو كانت قدرته على القبيح ممكنة لوقع منه .

والجواب : ان القدرة بالنسبة الى الذات المقدسة لا تنافي عدم الوقوع لحكمة جارية ، فلايجوز الحكم بعدم الوقوع على عدم القدرة .

عباد بن سليمان الصيمري ، فانه نفى أصل القدرة وقال ماملخصه : الفعل ان علم الله وقوعه وجب وان لم يعلم امتنع ؛ ولا قدرة له على الواجب والممتنع .

والجواب : أولا ان العلم لا يؤثر في المعلوم والقدرة تؤثر في المقدور ، وثانياً ان الوجوب والامتناع بالنظر الى العلم لم يكن من خروج المقدور من المقدورية في شيء ، فمردود .

هذه آراء بعض كبار المعتزلة في الموضوع ، استعرضناها بصورة

مختصرة جداً ، والتفصيل موكول الى الكتب الكلامية المفصلة التي أشبعت نواحي البحث . .

وأما الاشاعرة فقد وافقوا في عموم التعلق وادعوا معه الوقوع .

« وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الارض انه كان عليماً قديراً » .

(سورة فاطر : ٤٤)

انه تعالى عالم

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الاهو ويعلم ما في البر والبحر ومـا تسقط من ورقة الا يعلمها » . (سورة الانعام : ٥٩)

هذه الاية الكريمة وعشرات الايات مثلهـا بل المئات من الايات تدل دلالة صريحة واضحـة على علم الله تعالى بجميع ماسواه ؛ وهي تجعلنا في غنى عن الدخل والدفع والاخذ والردمن أجل الثبوت والاثبات في الموضوع والحكم .

ولكن لمعترض أن يعترض ويقول : لقد أثبتم القضية بالنقل فقط ، ونحن لانرتضي بذلك بل لابد أن تبرهنوا لنا بالادلة العقلية ، لان للعقل حكومة على مثل هذه الامور وله القول الفصل .

فنقول : ان من أوضح الواضح تكوين هذه الكائنات ، ومن أنعم النظر فيها ، ورأى رائحها وجائيها ، وتيقن محكم صنعها بقدرة بارئها ، لاذعنت نفسه بأن مصورها عالم بمبادئها ، متقن لمبانيها ، عليم بأسافلها

وأعاليهـا .

ثم انا أثبتنا فيمامضى أنه تعالى مختار ، حيث قلنا « فانه لولم يكن مختاراً لكان موجباً » ، وبهذا نتمكن منطقياً من اثبات كونه عالماً ، حيث نقيم برهاناً من الشكل الاول بقولنا : انه تعالى مختار (صغرى) ، وكل مختار عالم (كبرى) ، فتكون النتيجة انه تعالى عالم .

وبيان ذلك :

أولا : معنى العالم (بالكسر) هو « من حضرت الاشياء عنده » ، والحضور على قسمين : اما حضور نفس الاشياء ، أو حضور صورها . أما الاول المسمى بالعلم الحضوري فهو علم الله تعالى ؛ وأما الثاني المسمى بالعلم الحصولي فهو علم ماسواه .

ثانياً : لايجوز على المختار عدم القصد في أفعاله وتروكه ، لان عدم القصد ينافي الاختيار ، فلابد له من القصد . ثم هل يمكن أن يقصد الفاعل شيئاً بدون أن يحيط به علماً ؟ هذا باطل بضرورة العقل والمنطق .

ثم ان قيل يفعل بلاقصد قلنا : أولا هذا ينفي الاختيار فيه ، وثانياً هذا الاتقان والاحكام في صنعه تعالى يناقض الفعل بلا قصد . فمن سرح نظره بأقل امعان وتدبر في هذه الكائنات وبدائـع الصنع ودقة الاتقان أقر واعتـرف للعلي المنان ، بأنه العالم بمـا يكون وماكان ، تعالى عن الجهل والنسيان .

« واعلموا أن الله بكل شيء عليم » (سورة البقرة : ٣١) .

وهو القائل « انا نعلم مايسرون ومايعلنون » (سورة يس : ٧٦) .

ربي« تعلم مافي نفسي ولاأعلم مافي نفسك » (سورة المائدة:١١٦) .

« ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » (سورة البقرة : ١٢٧) .

علمه يتعلق بكل معلوم

« يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون به علما » .

(سورة طه : ١١٠)

من معاني هذه الاية الكريمة أن الله تعالى يعلم مابين أيدي الخلائق من أمور القيامة وأحوالهم . ويعلم ماسبقهم فيماتقدمهم ، وهو تعالى يعلم جميع ذلك ، وقدعلم جميع الأشياء احاطة . بمعنى أنه يعلمها على كل وجه يصح أن تعلم عليه مفصلا « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولافي السماء ولاأصغرمن ذلك ولااكبر الافي كتاب مبين » (١) .

ومن هنا يستنبط بأن علمه تعالى يتعلق بكل معلوم ، وهو جل وعلا شأنه القائل « ألم أقل لكم اني أعلـم غيب السماوات والارض » (٢) ، وهو خطاب للملائكة ، حيث يذكرهم بأنه يعلم ماغاب عنهم فلم يشاهدوه كما يعلم ما حضر لديهم فشاهدوه .

وهذا دليل قرآني آخر بأن علمه تعالى يتعلق بكل معـلوم ؛ سواء

---

(١) سورة يونس : ٦١ .

(٢) سورة البقرة : ٣٣ .

علمه بعض مخلوقاته أو لم يعلمه ، أو علم بعضه دون بعض ، كما هو الحق ؛ لانـه لا يمكن لمخلوق أن يحيط بكل معلوم حتى ولو كان أشرف خلقه كمحمد صلى الله عليه وآله وسلم . فانه لا يعلـم المعلومات الغيبية الا ما اطلعه الله تعالى عليـه منها ، والشاهـد على ذلك قوله « يسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » (١) ، وقوله « يسئلونك عن الساعة أيان مرساها * قل انما علمها عند ربي » (٢) .

وبهذا يثبت أن العلم بجميع المعلومات عن آخرها منحصر بذاته تعالى ، وهو المقتضي لعالميته ، لان نسبة جميـع المعلومات الى ذاته جل وعلا بالسوية ، وذلك لحضورها وتجردها لديه .

والعقل يوجب ذلك ايضاً ، لانا أثبتنا فيما مضى انه تعالى عالم ، ولما وجب أن يكون عالماً وجب أن يكون علمه متعلقاً بكل معلوم ؛ لانه لو لم يكن كذلك لزم الترجيح بلا مرجح ، وهو ممنوع عقلا .

ولانه تعالى حي ، ولو لم يكن ذا حياة لما صح وصفه بالعالمية ؛ فالحياة هي المصححة للعلم . ولمـا ثبتت له الحياة كما ثبت له العلم صح له تعالى أن يعلم كل معلوم ؛ لانه لو لم يكن كذلك لما صح للحياة أن تكون مصححة للعلم .

---

(١) سورة الاسراء : ٨٥ .

(٢) سورة الاعراف : ١٨٧ .

وبهذا الاستدلال نرى أنه يجب له تعالى العلم بكل معلوم مطلقاً ، لان ماصح له تعالى - بمعنى صح أن يتصف به - واجب له ، لان صفاته ذاتية كماثبت ، والصفات الذاتية واجبة ، لان غير الواجب ممكن والممكن مفتقر ، فتصبح الصفة التي هي عين الذات مفتقرة ، وهو خلاف لاستحالة افتقاره تعالى الى غيره . . تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وقد زعم بعض المتكلمين والفلاسفة أنه تعالى لا يعلم ذاته دون كل معلوم ، بدليل أن العلم اما صورة مساوية للمعلوم ، والمفروض أن المعلوم ذاته المقدسة التي ثبت لها العالمية ، فتصبح النتيجة وحدة المعلوم والعالمية ، وهو ممنوع لانه اجتماع المثلين .

وقد أجيبوا بما محصله :

أولا : عدم التسليم بأن العلم حصول صورة مساوية للمعلوم ، لانه يلزم أن يكون الذهن حاراً عند حصول العلم بالحرارة .

وثانياً : ثبت أن علم الله تعالى لم يكن صورة وانما هو حضور نفس المعلوم ، فذاته المقدسة لم تكن غائبة عن ذاته ؛ وانما يعلم بذاته لا بصورة واتحاد العلم والعالم لا يضر مادام هناك تغاير اعتباري .

واما أن يكون العلم اضافة محضة ؛ والاضافة نسبة ؛ ولا تتحقق الا بين متغايرين ، والمفروض أن لا تغاير بين الذات المقدسة وماأضيف اليه ؛ فلابد أنه لا يعلم ذاته .

والجواب : أولا انه يمتنع أن يكون علم الله تعالى اضافة محضة ، وانما هو صفة حقيقية ذات اضافة ؛ ولا مانع من اضافة الصفة الحقيقية الى الذات المقدسة كما هو الواقع . وثانياً لو سلم بأن العلم اضافة محضة فانه لا يسلم أنها تستدعي المغايرة بين المنتسبين بالذات وخارج الذهن .

فهذا الشيخ الرئيس ابوعلي الحسين بن عبد الله بن سينا المولود في أفشنه سنة ٣٧٠ هـ والمتوفى في همذان سنة ٤٢٨ هـ ، يصرح بأن التغاير الاعتبارى في الذهن كان في الاضافة المحضة ؛ وهو فيمانحن فيه حاصل، لان الذات المقدسة لها صلاحية العالمية كما لها صلاحية المعلومية في الجملة ، ولاشك في مغايرة اعتبار الصلاحيتين في الذهن وان اتحدت العالمية والمعلومية كما هو الواقع .

« وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون » (القصص : ٦٩) .

« انه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون » (الانبياء : ١١٠) .

« والله يعلم ما في قلوبكم » (الاحزاب : ٥١) .

« والله يعلم ما تصنعون » (العنكبوت : ٤٥) .

انه تعالى حي

« الله لا اله الا هو الحى القيوم * لاتأخذه سنة ولا نوم » .

(سورة البقرة : ٢٥٥)

« وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً » .

(سورة طه : ١١١)

لو أطلقنا عنان الفكر مليأ ؛ وسرحنا طرفه ليرى الحق جلياً ، لحكم بأن المولى جل جلاله حي بالضرورة .

ولا يمكن أن يختلف اثنان في حياة الله تبارك وتعالى ، وذلك بعد ثبوت قادريته وعالميته ، لان العلم والقدرة لا يجتمعان مع عدم الحياة ، فلابد من الحياة بالضرورة ، ليصح اتصاف الذات بالعلم والقدرة . ووافقنا على هذا أبو الحسن البصري والحكماء حيث قالوا : حياته تعالى عبارة عن صحة اتصافه بالقدرة والعلم .

أما الاشاعرة فقد وافقونا في الاصل واختلفوا في المعنى ، حيث قالوا : « ان الحياة صفة ثبوتية زائدة على الذات » وظنوا أن صحيحية

اتصاف الذات بالقدرة والعلم موجودية الحياة الزائدة على الذات . وهذا وهم ؛ مع صحة اتصاف الذات بالعلم والقدرة والحياة .

نقول : ان كانت الحياة زائدة فهي اما قديمة أو حادثة . وكلاهما باطل ؛ لان القدم يلزم التعدد والحدوث يلزم الافتقار . والله تعالى غني بالذات وليس محلاللمحدثات ، فيثبت انه تعالى حي بالضرورة ، وحياته عين ذاته ، وهو المطلوب .

سبحانك اللهم وتعاليت عما يصفك الكافرون والظالمون . .

« وتوكل على الحي الذي لايموت وسبح بحمده » (الفرقا : ٥٨) .

« هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين » (غافر : ٦٥) .

انه تعالى مريد وكاره

« انمـا أمره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . (سورة يس : ٨٢)

« ولكن كره الله انبعاثهم »

(سورة التوبة : ٤٦)

هاتان الايتـان الكريمتان ـ آية الارادة وآية الكره ـ واضحتان كوضوح الشمس في رائعة النهـار على أن الباري تعالى مريد وكاره ، ولادليل أقوم من كلامه جل وعلا شأنه ، ولاقول أهدى من قرآنه المجيد .

وقد اختلف الطوائف الاسلامية في معناهما وتفسيرهما ، بعد أن اتفقوا على ثبوتهما .

قالت الاشاعرة : انها ـ أي الارادة ـ صفـة زائدة مغايرة للقدرة والعلم ، مخصصة للفعل ، وهي معنى قديم .

وقولهم هذا يلزم تعددالقدماء ، وقدثبت بطلانه ، لانا لانعلم أيهم نعبد ؟ أنعبد الذات المتحدة مع صفاتها وهو التوحيد الخالص ؟ أم نعبد القدماء وهو الشرك المحض ؟ أو نعبد رباً محتاجاً لغيره ـ أي الارادة ـ وهذا الغير اما من خلقه ، فيكون احتياجه لخلقه ؛ وهو باطل ، اذ كيف يكون خالقاً للشيء وهو محتاج اليه ، وفاقد الشيء لا يعطي . واما أن

يكون هذا الغير من خلق غيره وقد احتاج اليـه هو ، وكيف يمكن هذا وهو الغني عن العالمين ؟ تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وقالت الكرامية (١) : انهـا صفة زائدة مغاير للقدرة والعلـم ، مخصصة للعلم ، وهي معنى حادث قائم بذاته تعالى .

وقولهم هذا يلزم كون ذاته المقدسة محلا للحوادث ، وهوواضح البطلان . ولو قيل ان الارادة معنى حادث قائم في غير الذات المقدسة لزم احتياجه الى الغير ، كما ذكر قبل قليل ؛ وهو باطل أيضاً .

وقالت المعتزلة : ان الارادة صفة زائدة ، مغايرة للقدرة والعلم ، مخصصة للفعل ، وهي معنى حادث لا في محل .

ولازم قولهم هذا :

أولا ـ التسلسل ، لان الارادة المحدثة (بالفتح) لابد لها من مريد محدث (بالكسر) لارادة لافي محل ، وهذه الارادة أيضاً لابدلها من ارادة محدث ، وهلم جراً . فيتسلسل ، والتسلسل باطل بالضرورة .

وثانياً ـ من المتفق عليـه أن الارادة صفة ، ومن المحقق الثابت أن الصفات لابد لها من محل ، يعني موصوف يتصف بها ، اذاً لامجال

---

(١) هم أصحاب ابى عبد الله محمد بن كرام ، أصله من بجستان ثم خرج الى نيسابور ، وكان اتباعـه أربعين ألفاً نصفهم بخراسـان ونصفهم فى فلسطين ـ ترجمه ابن عساكر .

للقـول ـ بعدثبوت أن الارادة صفة ـ بأنها لافي محل ، وهذا قول جزاف .

ولقد ذكر هؤلاء الطوائف الثلاث بأن الارادة صفـة زائدة على الذات المقدسة ، وهي ليست كذلك ؛ بل هي علمه تعالى باشتمال الفعل على المصلحة الداعية الى ايجاده . ولولا تورطهم بزعمهـم أن الارادة صفة زائدة لما احتاجوا الى تعدد القدماء ، ولا الى محل للحوادث ، ولا الى احتياج الذات المقدسة الى غيره ، ولا الى التسلسل الباطل ، ولا الى صفة من غير محل . . عصمنا الله من الخطأ والزلل .

وهناك أقوال أخر لبعض العلماء :

منهم البخاري ، قال مامحصله : معنى ارادة الله تعالى هو أنه غير مغلوب ولا مكروه .

فبكلمة « غير » النافية جعل معنى الارادة معنى سلبياً . وهو وهم ، لان الارادة ايجابية . نعم لازم ارادته تعالى انه غيرمغلوب « والله غالب على أمره » (يوسف : ٢١) .

ومنهم البلخي (١) قال ما محصله : معنى ارادة الله تعالى ان كان في أفعاله هو علمه بها ؛ وان كان في أفعال غيره هو أمره بها .

ولايخفى أن العلم علمان : علم مطلق وهو انكشاف الاشياء مطلقا ، وعلم مقيد وهو انكشاف أشياء خاصة ، كالعلم بفعل فيه مصلحة أو فيـه

---

(١) مرت ترجمته .

مفسدة . وقدسبق مناالقول بأن الله تعالى عالم ، ولاشك أن عالميته مطلقة .

وأما بصدد كلام البلخي فيقال : ان كان غرضه من « علمه بها » العلم المطلق فهو غير صحيح ، لان علمه المطلق عين ذاته ، والارادة غير العلم بهذا المعنى حتماً . وان كان غرضه من « علمه بها » العلم المقيد بالمصلحة فهو الحق وقد قال به أبو الحسن البصري . وهذا العام ـ أي المقيد ـ هو الداعي الى ايجاد الفعل ان كان فيه مصلحة ، كما أنه الداعي الى الصرف عن الفعل ان كان فيه مفسدة .

هذا ، وقد استدل علماؤنا الاعلام بالتخصيص ، حيث أن الافعال لاتوجد دفعة واحدة ، وانما كل قدوجد في وقت دون غيره ، فهل يمكن أن يكون هذا الايجاد في وقت دون آخر عبثاً وبلا سبب ؟ .

أما العبث فتعالى عنه عز اسمه ، وأما بلا سبب فكذلك لا يجوز عليه جل جلاله . اذاً لابد من مخصص ، ولا مخصص سوى الارادة .

ثم انه تعالى أمر بما فيه المصلحة ونهى عما فيه المفسدة ، فهل هذا الامر والنهي جاءا جزافاً ؟ كلا . معاذ الله .

وانما أمر بمايريد ونهى عمايكره ، ولم يكن صدور الامروالنهي الا من حيث الارادة والكراهة .

وفي أقوال ائمتنا عليهم السلام ما يغنينا عن البحث والتنقيب ، حيث جاء عن الامام الكاظم عليه السلام ما يجعل الارادة ارادتين : ارادة

الخلق ، وارادة الخالق جل وعلا .

أماارادة الخلق فهي ما يضمر ويهم به ويفكر فيه ، ومايبدو له بعد ذلك من الفعل . وهو ناشيء من وهم الانسان بشيء يلائمه فيشتاق الى القيام به ، فذلك الشوق هو الذي يعبر عنه بالارادة .

وأما ارادة الله تعالى فهي احداثه الشيء بلا نية أو فكر أوحديث نفس ،وهذا هو الذي عبرعنه القرآن الكريم بـ « كن فيكون » ، ومعلوم أن « كن فيكون » لفظ حكاية لاقول يقوله الباري تعالى ، وانماهي ارادة محضة ساذجة بمجردها يقع المراد منه .

هذا ، وقد أوردنا في البحث ما يكفي المطلوب ويثبته ، وفيـه ما ينبـه الغافل عن غفلته لو أنصف وأمعن فيه النظر ، وهوكاف لطالب الحق والحقيقة .

« قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءاً أو أرادبكم رحمة » (الاحزاب : ١٧) .

انه تعالى مدرك

« لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » . (سورة الانعام : ١٠٣)

الادراك من شؤون الحواس الخمس ، وهو السبب الرئيسي لتلقي العلوم وتحصيلها ، فلابد من ادراك الشيء ثم العلم به ، وهذاينافي ذات واجب الوجود جل وعلا .

وروى الكليني في كتاب التوحيد من أصول الكافي ج١ عن هشام ابن الحكم رأس أصحاب الامام الصادق عليه السلام انه قال : الاشياء كلها لا تدرك الا بأمرين : بالحواس والقلب . والحواس ادراكها على ثلاث معاني :

١ - ادراكاً بالمداخلة .

٢ - ادراكاً بالمماسة .

٣ - ادراكاً بلا مداخلة ولا مماسة .

فأما الادراك الذي بالمداخلة فالاصوات والمشام والطعوم .

وأما الادراك بالمماسة فمعرفة الاشكال من التربيع والتثليث ، ومعرفة

اللين والخشونة والحر والبرد .

وأما الادراك بلا مماسة ولا مداخلة فالبصر ، فانه يدرك الاشياء بلا مماسة ولا مداخلة في حيزغيره ولافى حيزه . وادراك البصر له سبيل وسبب ، فسبيله الهواء وسببه الضياء ، فاذا كان السبيل متصلا بينه وبين المرئي والسبب قائماً أدرك ما يلاقي من الالوان والاشخاص ، فاذاحمل البصر على مالا سبيل له فيه رجع راجعاً فحكى ما وراءه ، كالناظر في المرآة لاينفذ بصره في المرآة ، فاذا لم يكن له سبيل رجع راجعاً يحكي ماوراءه ، وكذلك الناظر في الماء الصافي يرجع راجعاً فيحكي ماوراءه ، اذ لا سبيل له في انفاذ بصره .

فأما القلب فانما سلطانه على الهواء ، فهويدرك جميع مافي الهواء ويتوهمه ، فاذا حمل القلب على ماليس في الهواء موجوداً رجع راجعاً فحكى مافي الهواء .

فلاينبغي للعاقل أن يحمل قلبه على ماليس موجوداً في الهواء من أمر التوحيد .

جل الله وعز ، فانه انفعل ذلك لم يتوهم الا مافي الهواءموجود ، كما قلنا في امر البصر .

تعالى الله أن يشبهه خلقه .

* * *

أقول : ان الاية الكريمة التي مرذكرها في صدر البحث تصرح بأنه تعالى مدرك ، فكيف يمكن التوافق بين تصريح الاية الكريمة وتنافي الادراك الذات الجليلة ؟ .

بعد ثبوت أن واجب الوجود جلت عظمته قادر مختار عالم حي مريدكاره ، يصح له الادراك ، وكلما صح له وجب له ، لثبوت استحالة افتقاره الى غيره .

أما التوافق بين التصريح والتنافي المسبوقين فيكون كالاتي :

أولا ـ ان المولى لايحتاج الى ادراك ناشيء من الحواس الخمس، وانما ادراكه تعالى عين ذاته ، لما ثبت من أن الصفات عين الذات .

ثانياً ـ ان ادراكه لايكون كادراك أحدنا من حيث نشؤه من الحواس الخمس ، وانما ادراكه تعالى هو علمه بالادراك ، لان الادراك من المعلومات ، وقد أثبتنا علمه بالمعلومات كافة ؛ فعلمه عين ادراكه وادراكه عين علمه ، وانما التغاير بينهما هو تغاير اعتباري عقلي .

وأما ما قاله الشريف المرتضى علم الهدى علي بن الحسين الموسوي ـ المولود سنة ٣٥٥ والمتوفى ببغداد ٢٥ ربيع الاول سنة ٤٣٦ هـ ـ من أن الادراك زائد على العلم . فمردود ، لانه يلزم التعدد ، وقد ثبت بطلانه .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » (آل عمران : ٨) .

انه تعالى قديم ازلى باق ابدى

« ويبقى وجه ربك ذوالجلال والاكرام »
(سورة الرحمن : ٢٧)

من الجدير بالذكر أن واجب الوجود جل وعلا ذكره لا يجوز عليه الانتهاء كما لايجوزعليه الابتداء ، فهو كماهو : قديم ، أزلي ، باق ؛ أبدي ، سرمدي .

١ ـ قديم ؛ ليس لقدمه قدم ، ولاشيء قبله ، ولاأول لوجوده فيما مضى من زمن .

٢ ـ أزلي ؛كان وكونه موجود في الأزل الى مالا نهاية بالماضي.

٣ ـ باق ، لا نهاية لوجوده مهما حضر زمن أو حدث ؛ فوجوده تعالى مصاحب كل ما تحقق وما هو مقدر من الزمان .

٤ ـ أبدي ؛ كلما استقبل الزمان وتبدل المكان (١) ، لانهاية لوجوده أبداً ؛ وهو تعالى مصاحبها جميعاً من غير تفاوت ولاتخلف .

(١) اشارة الى الاية الكريمة « يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار » (ابراهيم : ٤٨) .

٥ ـ سرمدي ، معدوم العدم فلا يجوز عليه ؛ فيجب كونه في الماضي والحال والمستقبل « هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » (الحديد : ٣) .

ولاتصافه بهذه الصفات يستحيل دخول العدم السابق واللاحق عليه ، ولو لم يكن كذلك وقيل بعدم استحالة دخول العدم عليه لانقلبت حقيقة الواجب الى الممكن ؛ وهو محال .

* * *

قد أثبتنا فيما مضى أنه تعالى واجب الوجود ؛ ولما كان كذلك يستحيل عليه العدم مطلقا ؛ وكلما استحال عليه العدم تثبت له القدمية والأزلية والبقاء والابدية ؛ وهو المطلوب .

من دعاء الأمام زين العابدين عليه السلام :

« الحمدلله الاول بلا أول كان قبله ؛ والآخر بلاآخر يكون بعده ، الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين ؛ وعجزت عن نعته أوهام الواصفين ، ابتدع بقدرته الخلق ابتداعاً ؛ واخترعهم بمشيته اختراعاً » .

الى أن قال عليه السلام :

« والحمد لله على ما عرفنا من نفسه ؛ وألهمنا من شكره ، وفتح لنا من أبواب العلم بربوبيته ، ودلنا عليه من الاخلاص له في توحيده ؛

وجنبنا من الالحاد والشك في أمره » .

الى أن قال عليه السلام :

« والحمد لله الذي أغلق عنا باب الحاجة الا اليه . . » الخ .

« ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأنى تصرفون »

(الزمر : ٦)

انه تعالى متكلم

« وكلم الله موسى تكليماً » (سورة النساء : ١٦٤).
« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه » .
(سورة الاعراف : ١٤٢)
« وان أحد من المشركين ا تجارك فأجره
حتى يسمع كلام الله » . (سورة التوبة : ٦)

هذه الآيات البينات ومثلها الكثير مما لاتدع مجالا لادنى شك أو ريب في أن الله تعالى متكلم ، وقد كلم الملائكة وآدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ونبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وغيرهم من الأنبياء ، سواء بواسطة أو بلاواسطة أو بمنام أويقظة أوبطرق اخرى .

وقد أجمع المسلمون على هذا ، بل وغيرهم من الملل لاينكرون أن الله تعالى متكلم ، لان جميع الانبياء اخبروا بذلك .

ولكن الكلام في طريق ثبوته وماهيته ، وهل أنه قائم بذاته أم بغيره ، وهل هو حادث أم قديم ؟ فالبحث يقع في :

١ ـ طريق ثبوت الكلام .

٢ ـ ماهيته .

٣ ـ فيما تتقوم به تلك الصفة .

٤ ـ القدم والحدوث .

اختلف العلماء من المتكلمين في البحوث الاربعة المذكورة : فوافقنا بعضهم في بعضها ؛ ووافقنا بعضهم في كلها ، ولم يوافقنا بعضهم في شيء منها . فينبغي ايراد ماقالوه ليوضع على طاولة التشريح والنقد والتصريح .

قالت المعتزلة : المراد بالكلام الحروف المسموعة المنتظمة ؛ وطريق ثبوته هو السمع ، وانه قائم بغيره لابذاته ، وانه حادث .

وهذا القول موافق لنا ؛ وسنأتي بالادلة القاطعة الصريحة عليه .

وقالت الاشاعرة : ان كلام الله تعالى ليس بحرف ولاصوت وانما هو معنى ، وطريق ثبوته العقل ، وانه قائم بذاته ، وانه قديم .

وهذا القول مخالف لنا وللمعتزلة كلياً ، وللتدليل على بطلانه نقول :

أ ـ اندعوى ان الكلام ليس بحرف ولاصوت باطل ، لانالمتبادر الى الذهن هو الحروف المنتظمة والصوت المخترق للهواء والواصل الى السمع بواسطة الذبذبات الهوائية ، والدليل على ذلك أن العقلاء لايسمون الاخرس متكلماً مع أنه يضمر في نفسه .

ب ـ ان طريق الثبوت لم يكن العقل ، لانه ليس هناك دليل عقلي

كامل يثبت لنا أن الله تعالى متكلم ، فوجب أن يكـون الثبوت بطريق السمع ، وهو المطلوب .

ج ـ ان الكلام لم يكن قائماً بذات الله تعالى ، وقدتورط الاشاعرة بهذا القول لانهم جعلوا الكلام معنى ، ولماأثبتنا ـ فيماسبق ـ انالكلام حروف وصوت بطل دعواهم بأنـه قائم بذاته تعالى لانه لم يكن محلا للحوادث ، اذاً فالكلام لم يكن قائماً بذاته ، وهو المطلوب .

د ـ ان الكلام لم يكن قديماً كما ادعوا ، لانه لو كان قديماً لتعدد القدماء ؛ وهو ظاهر البطلان . ولانــه لوكان قديماً ما عدمت الحروف الاولى وحلت محلها حروف جدد ، فضرورة انعدام الحروف وحدوث غيرها دليل على عدم قدم الكلام .

وقالت الكرامية ـ وهم اتباع محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٦ : ان كلام الله تعالى هو الحروف المركبة والاصوات المفهمة ، وانه قائم بذاته .

أما الاول فصحيح لما قدمناه من دليل ، ولا يمكن أن يكون على غير مانرى ونحس ونفهم ، لانه لوكان الكلام شيئاً آخر لوصل الينـا ولترجمه علماء اللغة . وأما الثاني فقد عرفت في الرد السابق بطلانه .

وقالت الحنابلة ـ وهم جماعة احمد بن محمد بن حنبل المولود ببغدادسنة ١٦٤والمتوفى بها سنة ٢٤١ ـ : ان كلام الله تعالى هو الحروف

المركبة والاصوات وتركيبها بشكل مفهم، وانه قائم بذاته ، وان الحروف قديمة .

والجواب كما سبق في حقانية الاول وبطلان الثاني ، وأما الثالث - وهو القول بأن الحروف قديمة - فهو باطل أيضاً ؛ لان المسلمين أجمعوا على كفر من قال بقدم غير الله تعالى ، لممنوعية تعدد القدماء ، وقد أجبنا بغير هذا فراجع .

أما نحن فنقول :

١ ـ الطريق .

ان الطريق الى ثبوت كلام الله تعالى هو السمع ، بدليل الاية الكريمة « وكلم الله موسى تكليماً » ، فيجب اثباته .

٢ ـ الماهية .

ان ماهية الكلام هو الحروف والاصوات ، ولا يتصور غيرها ؛ والذي لا يتصور كيف يمكن تصديقه ، اذ لا تصديق الا بعد التصور بالضرورة .

٣ ـ ما يتقوم به صفة التكلم .

لا شك أن الله تعالى فاعل الكلام لا الظرف المستوعب له ، ولو لم يكن كذلك لما وجد الكلام في الشجرة ، بدليل الاية الكريمة « نودي من شاطىء الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة » (١) .

---

(١) سورة القصص : ٣٠ .

ثم لو وضعنا الكلام بين الامكان والوجوب لرأيناه ممكناً ؛ والله تعالى خالق الممكنات وجاعلها ؛ ولا يعقل أن يكون تعالى محلا لمخلوقه .

ثم لنرى هل ان المتكلم هو من فعل الكلام وصدر منه أم من قام به الكلام ؟ .

ان قلت من قام به الكلام فقد غالطت ، لان الكلام يقوم بالذبذبات الهوائية ، وماسمعنا احداً من أهل اللغة يقول بأن الذبذبة متكلمة ، وبهذا يظهر بطلان هذا القول . وان قلت من فعل الكلام فقد وافقتنا ، وهو الحق والمطلوب . والدليل الحسي على ذلك أنه لو فتح الراديو أو المسجل يسأل من المتكلم ، فيقال فلان ويسمى المذيع أو من سجل صوته . وبهذا يتم أحقية قولنا .

٤ ـ في قدم كلام الله أو حدوثه .

لا يجوز القول بالقدم ، لان الثابت عند جميع الفرق الاسلامية أن الكلام يغاير القدرة والعلم ، ولثبوت هذا التغاير لا يمكن القول بالقدم ، لتسبيبه التعدد ، والتعدد خلاف التوحيد ، فمن قال به بطل توحيده ؛ ومن بطل توحيده فقد كفر .

ثم ان الكلام بما انـه مركب من حروف ، ولا تأتي الحروف التالية الا بعد انعدام الحروف السابقة لابد أن يكون محدثاً ، والدليل هو الانعدام ، لان القديم لا ينعدم .

اضافة على كل ما مر نرى في كلام الله تعالى ما لو كان قديماً كان كذباً ، كقوله تعالى « انا أرسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنافي ذريتهما النبوة والكتاب » (١) ومثله آيات كثيرة ؛ فهل كان هـذا الارسال قديماً ـ قبل خلق آدم ، أوأن الله تعالى كذب والعياذ بالله ، ولمن تكلم ، أوانه تعالى لايعرف صيغة الماضي عن المضارع ، مع ان المقام لايسع لاتيان الماضي بقصد المضارع ؟ ! .

وما كان الله تعالى بفاعل للقبيح حيث يمتنع عليه ذلك ، فلا يفعل شططاً ولا يقول عبثاً ، حيث قال « قل لا اسألكم عليه أجراً الا المـودة في القربى » (٢) .

فهل هذا قديم ، ولم هذا العبث ؟ ! .

وبعـد كل ذلك اذا قال الله تعالى ان الكلام محدث فمـن يرده ؟ واليك قوله تعالى « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون » (٣) والذكر هو كلام الله تعالى بدليل قوله « انانحن نزلناالذكر وانا له لحافظون » (٤) وآيات أخرى تدل نفس المدلول .

---

(١) سورة الحديد : ٢٦ .

(٢) سورة الشورى : ٢٣ .

(٣) سورة الانبياء : ٢ .

(٤) سورة الحجر : ٩ .

وبهذا يقطع أن الذكر هو كلام الله عز شأنه ؛ وهو محدث ، ولا تبديل لكلماته .

عفا الله عمن طلب الحق فاشتبه ؛ وأهلك من رآه فانحرف .

« ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد » (ق : ٢٩) .

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » (الكهف : ١٠٩) .

انه تعالى صادق

« الله لااله الاهوليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه ومن اصدق من الله حديثاً » .

(سورة النساء : ٨٧)

وهل يشك أحد في صدق الله تعالى ؟ ! .

لا يكذب الا الجبان الخائف ، وربنا القوي الجبار .

ولا يكذب الا العاجز المحتاج ؛ وربنا القادر الغني .

ولا يكذب الا الناقص الحقير ، وربنا المتعال العزيز .

ولايكذب الا السائل الطمع ، وربنا المعطي السخي ، يرزق من يشاء بغير حساب .

سبحان ربنـا من كل نقص .

سبحانه من كل قبيح .

سبحانه من كل عيب .

الصدق والكذب ضدان ، فالصدق هو الاخبار المطابق للواقع ،

والكذب هو الاخبار غير المطابق للواقع ، وكل ماكان غير مطابق للواقع فهو قبيح ونقص . وبما أن الله تعالى منزه عن القبائح والنقائص فلايجوز عليه الكذب ، وهو ممتنع عليه .

تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .

« وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » (الأنعام : ١١٥) .

« وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا » (النساء : ١٢٢) .

الصفات السلبية

قبل البحث

الصفات السلبية : هي صفات يمتنع أن يتصف بها الباري جل وعلا شأنه ، ولو وصف بأحدها لخالفت وجوب وجوده ووجدت ثلمة في التوحيد ، وأدت بالعقيدة الى مالا يحسن عقباه ، وأودت بالمسلم في حضيض الجهل . وبالتالي تهدم جميع مابنته الفلسفات الآلهية ، والعقول النيرة ، والنفوس الطاهرة الزكية .

وهي سبعة :

التركيب

انه تعالى ليس بمركب .

والمركب على قسمين :

أ ـ المركب في الخارج .

مثاله : الدار ، فانه مركب من الجص والآجر والمواد الانشائية الاخرى ، وهو مرئي لكل ناظر سليم نظره .

ب ـ المركب في الذهن .

مثاله : الانسان ، فانه مركب من الحيوانية والناطقية ؛ ولا مكان له الا في الذهن ؛ ولا يرى في الخارج الا مصاديقه .

فالله تعالى ليس بمركب لا في الخارج ولا في الذهن ، فانه لو فرض تركيبه في الخارج لرئي ، كما انه لو فرض تركيبه في الذهن لعقل .

ولو فرض له التركيب ـ جدلا ـ لتجزأ ، لان المركب لابد له من أجزاء والا سمي بسيطاً ، ولو تجزأ لافتقر ، لان الاجزاء تفتقر بعضها الى بعض لتشكل الكتلة الكلية ، ولو افتقر لامكن ـ أي صار ممكناً ـ لثبوت أن المفتقر ممكن ، ولو أمكن لسقط وجوب وجوده ، وهذا خلف لما أثبتناه فيما تقدم .

« سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » (الاسراء : ٤٣) .

الجسم والعرض والجوهر

١ ـ الجسم : هو كل مايقبل القسمة في ثلاث جهات ـ أي الطول والعرض والعمق ـ ويشغل الحيز ، والحيزهو الفراغ الذي يشغله الجسم .

٢ ـ العرض (بالفتحتين) : هو ما ليس له وجود مستقل ، وانما يوجد بواسطة الجسم ، فيكون حالاً له . مثاله : اللون للجسم ، والمشي للانسان .

٣ ـ الجوهر .

قال المتكلمون : الجوهرهو كل متحيز، وينقسم الى أربعة أقسام :

١ ـ لايقبل القسمة ، فيسمى جوهراً فرداً .

٢ ـ يقبل القسمة مطلقا ، فيسمى جسماً .

٣ ـ يقبل القسمة من جهة واحدة فقط ، فيسمى خطاً .

٤ ـ يقبل القسمة من جهتين ؛ فيسمى سطحاً .

وقسم الحكماء الجوهر على أربعة أقسام أيضاً :

١ ـ كونه ظرفاً لغيره ، وحينئذيسمى «هيولى» ، ويسمى «مادة» ، وكلاهما واحد في المعنى .

٢ ـ كون الجوهر مظروفاً لغيره ، يعني قد حل في جوهر قبله ، ويسمى « صورة » .

٣ ـ كون الجوهر مزدوجاً من ظرف ومظروف ، فيسمى عندئذ « جسماً » .

٤ ـ كون الجوهر لا ظرفاً ولا مظروفاً ، بمعنى انه غير متحيز ، فيسمى « مفارقاً » .

وهذا الاخير يتعلق بالجسم ، وتعلقه على أحد قسمين :

أ ـ اما تعلق مع تدبير ؛ فيسمى حينئذ « النفس » .

ب ـ واما تعلق من غير تدبير ، فيسمى حينئذ « العقل » .

وقال الشيخ الرئيس ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا في الجوهر : هو كل ماوجود ذاته ليس في موضوع قدقام بنفسه دونه بالفعل لابتقويمه .

وبعد معرفتك الجسم والعرض والجوهر ، نقول لا يجوز على واجب الوجود جل وعلا ذكره أن يكون جسماً ولا عرضاً ولاجوهراً .

ولوفرض بأنه جسم لافتقر واحتاج الى الحيز كماقررناه ، والمفتقر والمحتاج ممكن كما أثبتناه ، والممكن نقيض الواجب ، والنقيضان لا يجتمعان .

ثم ان الممكن حادث والواجب قديم ، والحادث والقديم ضدان ،

والضدان لايجتمعان .

وكذلك لو فرضناه عرضاً ، فانه يحتاج حينئذ الى محل جسمي ليستقر عليه ويكون حالا له ؛ وهذا بديهي البطلان ايضاً .

ويقال في الجوهر ماقيل في الجسم والعرض ، لانه تعالى لم يكن هيولى ـ أي مادة ـ ولو كان لصار محلا لمثله ، وهذا باطل بالضرورة ، ولم يكن صورة ولو كان لرئي ؛ ولم يكن مفارقاً ولو كان لتعلق بالجسم ؛ وهو باطل أيضاً .

فثبت انه تعالى ليس بجسم ولاعرض ولاجوهر ، وهو المطلوب .

« فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هـو رب العرش الكريم » .

(المؤمنون : ١١٦)

التناسخ والحلول والجهة

الحرنانية .

الحرنانية جماعة من الصابئـة ، وهم الذين يقولون بالمحسوس والمعقول والحدودوالاحكام ، ولايقولون بالشريعة والاسلام ، ويؤمنون بنبيين فقط هما : عاذيمون (وهو شيث) ، وهرمس (وهوادريس) عليهما السلام ، وسموا بهذا الاسـم لميلهم عن الحق ، ويقابل الصابىء (أي المائل) الحنيف (أي المعتدل) . ومنهم نشأ أصل فكرة التناسخ والحلول.

التناسخ :

هو أن الادوار والاكوار ـ أي العمـارات ـ تنتهي وتحدث من جديد الى مالانهاية ، والانسان والحيوان كذلك ، وكل مايصيب الانسان في حياته هو جزاء للدور الماضي الذي كان يعيش فيه ويعمل . وبالتالي هـذا معنى القيامـة ، فلا بعث ولا نشور . ومدة كل انتهـاء وحدوث (٣٦٤٢٥) سنة .

الحلول :

هوأن الله تعالى أبدع الفلك وجميع مافيه من الاجرام والكواكب ؛

وجعلهامدبرات هذاالعالم ، وهم الاباء ، والعناصرالامهات ، والمركبات مواليد . والآباء احياء ناطقون يؤدون الآثار الى العناصر ، فتقبلها العناصر في أرحامها ؛ فيحصل من ذلك المواليد .

ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوها دون كدرها ، ويحصل له مزاج كامل الاستعداد ، فيتشخص الاله به في العالم .

المحـل :

قالت النصارى بالحلـول ، وهو أن الله تعالى قد حـل في عيسى عليه السلام : فتارة يسمونه الاب ، وأخرى يسمونه الابن ، وثالثة يقولون انه صـورة الله تعالى ، ورابعة يقولون ان الرجـل صـورة الله تعالى ، وهكذا . وينسبون الافاعيل والاكاذيب الى عيسى عليه السلام ، وذلك في أناجيلهم وعهودهم القديمة والجديدة .

ومن الجدير بالذكر : ان الاناجيل والعهود بعضها تناقض الاخرى . وعلى سبيل المثال : يقول بعضها ان المسيح الكلمة الازلية الخالق للعالمين ، كمـا يقول بعضها الاخر على لسانه عليه السلام : أنا لا أقدر أن افعل من نفسي شيئـاً .

انه لم يقدر أن يصنـع في وطنه ولا قوة واحدة .

وانـه يتضرع الى الله تعالى ، ويعبده بالصلاة والصوم ، ويطلب منه ويفزع اليه في حوائجه وضيقه ويطلب منه النجاة _ الخ .

وانه قال على الصليب : الهي الهي لماذا شبقتني - أي لماذا تركتني؟!

وهكذا ترى التناقضات بين العهود والاناجيل ، فمن أراد الاستزادة فليراجع كتاب الهدى للعلامة البلاغي « قده » .

ومن العجب العجاب ـ وبالرغم من مرور عشرين قرناً وتقـدم الملة المسيحية في جميع شؤون الحيـاة ـ أن تراهم مكبين على تلك العقائد المتناقضة ولم يصححوها ؛ بل ولا يفكرون في عصر النور ان ينوروا عقولهم وان يتركوا فكرة الحلول التي هي كفر بالله تعالى .

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » .

(آل عمران : ٥٩)

« انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم » .

(النساء : ١٧١)

« واذ قال الله ياعيسى بن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان أقول ماليس لي بحق ان كنت قلتـه فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك علام الغيوب * ما قلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت

على كل شيء شهيد » (المائدة : ١١٦ - ١١٧) .

* * *

هذا مايخص النصارى ، وهناك طائفة أخرى تقول بالاتحاد - وهو مأخوذ من الوحدة - وهي طائفة الصوفية .

والصوفية - كماتحدث عنهم الشيخ صفي الدين الطريحي المتوفى حدود سنة ١١٠٠ - هم فرق اسلامية ، ترى أن السعادة والمعرفة الكاملة لاتتم الا بالاتصال روحياً بالله تعالى ؛ وهذا الاتصال الروحي الذي هو غاية النفس البشرية لايحصل الا بانصراف النفس عن الدنيا وملاذها ، وقهرها بسلسلة من الاعمال والعبادات التي تضني الجسم وتقوي الروح لتتحد بالله عز شأنه ، معرضة عن كل مافي هذا الوجود العارض من كدورات وهفوات - الخ (١) .

زعمت هذه الطائفة أن الباري تعالى يتحد بالعارفين ، والعارف عندهم من قام بالرياضات النفسية ، والتي مر ذكر بعضها في كلام الطريحي « قده » .

فهولاء هم الذين قالوا بالحلول والاتحاد من ذي قبل ، وأقوالهم كلها مردودة ؛ لان العقل يحكم بعدم جواز كون الواجب تعالى في محل يحل فيه ، لان معنى « حل شيء في شيء » هو احتياج الحال في المحلول

---

(١) أنظر مطارح النظر للطريحى .

فيه وهو تبع له ، ولو فقد المحلول فيه - أي المحل - فقد الحال ، وهو ظاهر البطلان .

ثم معنى هذا أن الواجب تعالى عرض ؛ وقد أثبتنا بطلانه ، بدليل أن العرض يحتاج ، والاحتياج نقص لايجوز على الواجب جل وعلا . أوقل : ان الواجب تعالى يفتقر والمفتقر ممكن ؛ فيصير الواجب ممكناً ، وهو خلف .

الجهة :

ومعناها - كما سبق - الفراغ الذي يشغله الجسم .

وقد عرفها بعض العلماء بأنها مقصد المتحرك ومتعلق الاشارة الحسية ، وكلا التعريفين لم يختلفا في المعنى .

والكرامية تقول بالجهة ، ولا شك في بطلان قولهم .

والكرامية - كما في الملل والنحل - اثنتي عشرة طائفة أصولها ستة : العابدية ؛ التونية ، الزرينية ؛ الاسحاقية ، الواحدية ، الهيصمية .

١ - نص أبو عبد الله محمد بن كرام : ان معبوده على العرش استقراراً ، وعلى انه بجهة فوق ذاتاً . وبعض ماقاله في كتابه « عذاب القبر » هو : انه تعالى مماس للعرش من الصفحة العليا .

٢ - وقالت العابدية : ان بينه وبين العرش من البعد والمسافة مالو

قدر مشغولا بالجواهر لاتصلت به .

٣ ـ وقال محمد بن الهيصم : ان بينه وبين العرش بعداً لايتناهى .

٤ ـ ومنهم من قال : انه على بعض أجزاء العرش .

٥ ـ وقال بعضهم : امتلأ العرش به .

٦ ـ وقال متأخروهم : انه بجهة فوق ، وانه محاذ للعرش .

وصدورهذا الكلام من الكرامية مبني على ظواهر الايات الكريمة ، مثل قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » (١) وما أشبهها .

وتفسير مثل هذه الايات على الظواهر خبط ووهم ، لاسيما بعد ثبوت عدم الجسمية للباري تعالى . ومثل هذه الايات البينات تحمل على معان اسمى ، وتأول بتأويلات أوقع في الواقع .

وينبغى أن يكون نفي الجهة عن الله عز شأنه أمراً مفروغاً عنه ، لانه لو كان في الجهة لافتقر اليها ولما انفك عن الحوادث ، والمفتقر ممكن ، وغير المنفك عن الحوادث حادث ، وكلاهما خلف .

---

(١) سورة طه : ٥ .

المزاج واللذة والالم

المـزاج :

المزاج هـو ماتركب من الاخلاط العنصريـة ، وهو مخصوص بالاجسام ، وتركيبه من : الماء ، والهواء ، والنار ؛ والتراب .

وله حالتان : الفتور ، والتوسط . فيتولدالفتورمن حرارة الناروبرودة الماء ، ويتولد التوسط ـ أي الحالة الوسط ـ من رطوبة الهواء ويبوسة التراب .

اللـذة :

جاء في تعريف اللذة شتى العبارات ، واليك بعض مضامينها :

١ ـ هي ميل المزاج الى الاعتدال ، كميل المزاج الى الحلو .

٢ ـ هي ادراك ما يتعلق بالشهوة ، كادراك الانسان طعم الحلو .

٣ ـ هي ادراك الملائم من حيث هوملائم ، كادراك نسيم الصباح .

الالـم :

وقد جاء في تعريفه ايضاً عبارات شتى اليك بعض مضامينها :

١ ـ هو ميل المزاج عن الاعتدال ،كميل المزاج ـ أي صده ـ عن المر .

٢ ـ هو ادراك ما يتعلق بالنفرة ؛ كادراك الأنسان طعم المر .

٣ ـ هو ادراك المنافي من حيث هو مناف ، كادراك سموم الحر في القيض .

وبعدمعرفة المزاج وتعلق اللذة والالم به يتحقق عدم صحة اللذة والالم على الباري جل جلاله ؛ لامتناع المزاج عليه تعالى ؛ وذلك لثبوت تركيب المزاج ؛ وخلو الباري عز شأنه عن التركيب . ثم ينتفي التابع بانتفاع المتبوع ، وهو المطلوب الذي عليه الشيعة الامامية .

الاتحاد

الاتحاد هو صيرورة الشيء مع غيره شيئاً واحداً بدون زيادة أو نقصان في نفسه ، بمعنى أن الواحد يضاف الى واحد آخر ، فلا يزيد على الاول شيء باضافته ولا ينقص من الثاني شيء برده ، وهذا من المستحيلات العقلية ، ولا يوجد اتحاد حقيقي مطلقاً .

ثم ان الواجب تعالى واحد أحد ، وما سواه ممكن مخلوق له ؛ فكيف يمكن ان يتحد بغيره ؛ فيصير الاتحاد من واجب وممكن ؛ كما قالت النصارى « اتحد اللاهوت بالناسوت فصار الهاً » ، وكما زعمت المتصوفة « انه تعالى يتحد بالعارفين » ؛ وكما قالت النصيرية (١) « ظهور الروحاني بالجسد الجسماني أمر لاينكره عاقل ، كظهور جبرئيل بصورة أعرابي وظهور الشيطان بصورة انسان » . ومن هنا قالوا : ان الله تعالى يظهر بصورة اشخاص ؛ ولما لم يكن بعد رسول الله (ص) أفضل من علي وأولاده عليهم السلام وهم خير البرية ، فظهر الحق بصورتهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم ، وعلى هذا أطلقنا اسم « الالهية » عليهم .

فهذا وما أشبهه كفر محض ، لان اتحاد الباري مع غيره معناه : اما انقلاب الواجب الى الممكن أو بالعكس ، أو فناء احدهما بالآخر ؛ أو بقاء الاثنينية ، او وجود شيء عند ارتفاع المتحد والمتحد . وكلها باطلة بالنسبة الى الذات المقدسة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

---

(١) جماعة محمد بن نصير النميرى ، وهم من الغلاة .

المحل والحوادث

المحل : المكان الذي يستقر عليه الجسم .

والحوادث : ما وجدت بعد العدم - أي لم تكن وكوّنت .

زعمت الكرامية ان الله جل وعز محل للحوادث ، وذلك بزعمهم ان ارادته وكراهته حادثتان ؛ فهو محل لهما .

وزعمت ان القدرة والعلم اعترته بعد أن كان غير قادر وغير عالم ، وهذا يدل على انه محل للحوادث . وهو خلاف ، لانه تعالى لاينفعل عن غيره ، ولو انفعل لتغير ، والمتغير ممكن ، وهو تعالى واجب ، فيقع الخلف .

ثم ان ضرورية كمال الباري تعالى - كما ثبتت - تمنع من نقصه جل وعلا ؛ فكيف يمكن خلوه عن القدرة والعلم ، في حين أن الخلو نقص .

وبهذا يظهر بطلان زعم الكرامية ، ويثبت انه تعالى ليس محلا للحوادث ، لامتناع انفعاله عن غيره ، وامتناع النقص عليه - جلت عظمته .

الرؤيـة

« لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » . (سورة الانعام : ١٠٣)

الرؤية لهاعدة معاني ، ومنها النظر بحاسة البصر الى شيء وانطباع صورته في البصر ، أو خروج شعاع من البصر واتصاله به ؛ ولابد لذلك الشيء أن يكون ذا جهة مقابل للعين أو بحكم المقابل للعين كالمعكوس في المرآة ، ولابد لكل ذي جهة من طول وعرض وعمق ، وهو بالتالي جسم .

ومن هنا يعلم استحالة رؤية الباري تعالى بالحاسة ، وذلك لثبوت تجـرده .

وفي هذه الاستحالة وافقنا الحكماء والمعتزلة ؛ وخالفنا المجسمة والكرامية والأشاعرة :

أما المجسمة والكرامية فانهم قالوا ـ بلا تردد ـ بجواز رؤيته تعالى بالحاسة البصرية . وقد مرت أقوالهم والرد عليها .

وأما الأشاعرة فقد وافقونا بالتجرد وخالفونا بعدم الرؤية ؛ حيث انهم يعتقدون بجواز رؤيته تعالى ؛ وذلك بطرق ملتوية محصل بعضها :

ان المراد بالرؤية ليس الانطباع أو الاشعاع ، بل الرؤية هي الحالة التي تحصل من رؤية الشيء بعد حصول العلم به .

ونسبة هكذا رؤية للبصر باطلة ، لان البصر لا يرى الا بالانطباع أو الشعاع ، ولابد أن يكون المرئي ذا جهة ، وكل ذي جهة فهوجسم .

وأما نسبة هذه الرؤية للقلب فصحيحة ، لان الحالة مما يدركها القلب ، وذلك واضح في قول أمير المؤمنين عليه السلام « لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان » .

ولايمكن لاحد طلب المشاهدة قط ، ومن طلب ذلك فانه يصعق ، كما قال تعالى « فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » (النساء : ١٥٣) .

الشريك

لا يخفى على ذوي اللب والفطنة نفي الشريك عن الله تعالى ، مع ماقدمنا من حصر واجب الوجود بالفرد وعدم امكان فرد آخر ، لمايقع من التناقض ، أو لما يجتمع من التنافي .

ولنا ثلاث طرق على اثبات نفي الشريك :

١ ـ طرق الحكماء :

استدل الحكماء على نفي الشريك للباري عز شأنه : بأنه لو كان لشاركه في وجوب الوجود .

ثم يجب تمييز أحدهما عن الاخر ، فان تميزا ثبتت الفصلية ، لان المميز فصل ، وبثبوت الفصل يثبت الجنس ، لانه لافصل بلاجنس ، وبثبوتهما يثبت التركيب ، والمركب ممكن لامحالة ، وقد ثبت أن الباري تعالى واجب .

وان لم يحصل تمييز بينهما فبماذا تثبت الاثنينية .

هذا مضافاً الى أن الاثنينية تحتاج الى فرجة بينهما ، فتصبح القدماء ثلاثة ، وهو واضح البطلان .

٢ ـ طريق المتكلمين :

استدل المتكلمون على نفي الشريك للباري تعالى بدليل التمانع، وهو كما مثلنا فيما سبق : انه لو كان هناك الهين وأراد أحدهما تقديم يوم القيامة والاخر يريد تأخيرها ، أوأن احدهمايريد انشاء خلق جديدوالآخر لايريدذلك ، وهلم جرا .

فان تحققت ارادتهما معاً لاجتمع المتنافيان ، وهو خلاف ، وان لم تتحقق ارادتهما معاً لظهر عجزهما ، وهو خلاف ايضاً .

وان تحققت ارادة احدهما دون الآخر لكان ترجيحاً بلا مرجح وثبوتاً لعجز الاله الآخر ؛ وعجز الاله باطل ، ومنهايلزم فساد نظام الكائنات.

٣ ـ طريق السمع :

والادلة السمعية كثيرة ، أهمها ماجاء في القرآن الكريم ، ومنها :

« قل هو الله أحد » (الاخلاص : ١)

« قل لو كان معه الهة كما يقولون اذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلا » (الاسراء : ٤٢) .

« انما الهكم اله واحد » (الكهف : ١١١) .

« لا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً » .
(الاسراء : ٣٩)

وهناك اكثر من أن يحصى في هـذا الباب حيث أقـوال الانبياء وأحاديث الاوصياء ومستنبطات الحكماء الى ماشاء الله ، كلها تشهد بتوحيد واجب الوجود جل وعلا ، وانه الواحـد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

سبحانك يا لااله الا أنت أجرنا من النار بعفوك يا مجير .

المعاني والاحوال

المعاني :

قالت الاشاعرة : هناك معان مثل معنى العلم والقدرة والحياة والارادة والكلام والسمع ؛ وهي قديمة زائدة قائمة بذات الله تعالى ، وانما الأفعال تصدر عن الذات المقدسة بواسطة هذه المعاني : فهو قادر بقدرة ، وعالم بعلم ؛ وحي بحياة ، وهكذا ـ الخ .

نقول : ان كانت الصفات قديمة وزائدة ، فهل هي واجبة أم ممكنة ؟

ان قلتم واجبة فقد أبطلتم التوحيد وعدوتم القدماء ، وهو واضح البطلان . وان قلتم ممكنة ، فكيف يمكن أن يحتاج الواجب الى ممكن ، ومن البديهي ان كل مفتقر ممكن ، فيصبح الواجب ممكناً ، وهو خلف .

ثم ان كل ممكن يحتاج الى مؤثر ، فان قلتم ان المؤثر ذات الواجب فكيف يمكن للواجب أن يؤثر دون ان يملك هذه الصفات ، وهذا يستلزم تقدم الذات والصفات حتى يؤثر فيها ، وهو يعني تقدم الصفات على نفسها ، وهو ظاهر البطلان .

وان قيل : ان الذات المقدسة مستغنية عن الصفات فتؤثر فيها .

قلنا : ان الذات الخالية من الصفات هل تصلح للالوهيـة ؟ كلا ثم كلا ! ! .

أمامفهوم قولهم « قادربقدرة . . » فهوأنه لولم تكن القدرة لم يكن قادراً ، فتكون النتيجة افتقـار الباري تعالى الى القدرة ليكـون قادراً ، والمفتقر ممكن ، فيصبح الواجب ممكناً ، وهو خلف .

ومثل هذا يقال في جميع الصفات المذكورة الأخرى .

الاحوال :

قالت البهشمية : الحال صفة لموجود ، ولا يصفونها بالوجودأو العدم ، فانها لا تتصف بهما عندهم .

وقالت : ذات الباري تعالى كبقية الذوات ، وهي مساوية لها . ثم أعطوها امتيازاً خاصاً هو « الحال » ؛ وفسروها بالالوهية . وهي توجب للباري عزشأنه أحو الاأربعة : القادرية ، والعالمية ، والحياة ، والموجودية . فهوقادر باعتبار تلك القدرة ؛ وعالم باعتبار تلك العالمية ، وحي باعتبار تلك الحياة ، وموجود باعتبارتلك الموجودية .

هذا ما قالته البهشمية ، وهـو ضروري البطلان ؛ اذ لوكان قادراً عالماً بقادرية وعالمية واما أشبه لكان مفتقراً الى القادرية والعالمية وما أشبه ، وافتقاره تعالى ممنوع .

ثم ان وصفهم الحال بعدم ؛ الوجود والعدم ؛ باطل ، لان الشيء لايخلو اما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، حيث ممنوعيــة الواسطة بين الوجود والعدم ، وهو ما قررناه فيما سبق ، فراجع .

ولقد نوه بعض الاعلام من أصحابنا الاماميــة بأن الصفات تعتبر زائدة في الذهن لا في الخارج ؛ وهو ليس بجيد ، لان الصفـة عرض والعرض غير الذات . بل المفروض ان يقال : ان الذات المقدسة هي بنفسها تقتضي القدرة والاختيار والعلم والحياة والارادة والكراهة والادراك والقدم والتكلم والصدق ، وصفاته تعالى عين ذاته .

قال امام الموحدين ، وسيد الحكماء والمتكلمين ، الامام امير المؤمنين عليه السلام :

« وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنهـا غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة ، فمن وصف الله فقد قرنــه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأ فقـد جهله . . » الخ .

بهذا يثبت نفي المعاني والاحـوال عنه جل وعلا ذكره ، وهو المطلوب .

الغنى

آخر صفة من الصفات السلبية انه تعالى غني ليس بمحتاج ، ولا أظن ان ثبوت الغنى له عزشأنه وعدم الاحتياج يحتاج الى دليل أو برهان ، وذلك لمامر من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة . وكيف لايكون غنياً وليس بمحتاج وهو واجب الوجود دون غيره ، والكل محتاج الى فيض وجوده .

ثم ان وجوب وجوده تعالى ينافي احتياجه من جهة ؛ ويقتضي استغناءه وافتقار غيره اليه من جهة أخرى ، لانه لولم يكن كذلك لانقلب الواجب ممكناً والممكن واجباً ، وهو خلف .

توضيح ذلك : ان الممكن يحتاج الى مؤثر ، فلو استغنى عنه ـ أي المؤثر ـ ولم يحتج اليه لصار واجباً . والواجب لا يجوز له الاحتياج ، بل هو المؤثر في الممكنات كلها ، ولوقيل بافتقاره الى الغير لصار ممكناً . فيثبت له تعالى شأنه الغنى وعدم الاحتياج واحتياج غيره اليه جلت عظمته .

« له مافي السماوات ومافي الارض وان الله لهو الغني الحميد » .

(الحج : ٦٤)

« يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد » .

(فاطر : ١٥)

« نجز والحمد لله وله المنـة والشكر الجزء الاول من »

« كتابنا « محاضرات في أصول الدين » ؛ ونسأله تعالى »

« أن يوفقنا لاصدار الاجزاء الاربعة الأخرى منه ، فانه »

« عز شأنه هو الموفق للعباد الى ما فيه الخير والسداد . »

الفهـارس

١ ـ فهرس الاعلام

(أ)

٢ ـ الملل والنحل

٣ ـ الامكنة والبلدان

٤ ـ مصادر الكتاب

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، طبع بيروت

٣ ـ تأسيس الشيعة ، السيد حسن الصدر ، طبع العراق

٤ ـ شرح الباب الحادى عشر ، العلامة الحلي ، طبع ايران

٥ ـ آفريدگار وآفريده ، الدكتور محمد صادقي ، طبع ايران

٦ ـ مغني اللبيب ، ابن هشام النحوي ، طبع ايران

٧ ـ مطارح النظر ، صفي الدين الطريحي ، طبع العراق

٨ ـ المنطق ، محمد رضا المظفر ، طبع النجف الاشرف

٩ ـ نهج البلاغة ، الشريف الرضي ، طبع طهران

١٠ ـ رينه ديكارت ، كمال يوسف الحاج ، طبع بيروت

١١ ـ الماركسية ليست فلسفة انسانية ، غازي الاحمدي ، طبع بغداد

١٢ ـ المدارس الفلسفية ، الدكتور احمدفؤاد اللاهوتي ، طبع القاهرة

١٣ ـ الكافي ، ثقة الاسلام الكليني ، طبع طهران

١٤ ـ علي والفلسفة ؛ محمد جواد مغنية ، طبع بيروت

١٥ ـ معالم الدين ، الشيخ حسن العاملي ، طبع قم
١٦ ـ رواد الفضاء ، اصدار جامعة مدينة العلم ، الكاظمية
١٧ ـ رسالة التوحيد ، الشيخ محمد عبده ، طبع القاهرة
١٨ ـ فلسفتنا ، السيد محمد باقر الصدر ، طبع النجف الاشرف
١٩ ـ التبيان ، الطوسي ، طبع النجف الاشرف
٢٠ ـ ليبنتز ، (تعريب) البير نصرى نادر ، طبع بغداد
٢١ ـ المادية الديالكتيكية ؛ ستالين ، ترجمة خالدبكداش ، طبع بغداد
٢٢ ـ لمعة من بلاغة الحسين (ع) ، السيد مصطفى الموسوي آل اعتماد طبع بغداد
٢٣ ـ علم النفس العام ، دو كلاس وادوين وچارلس ؛ تعريب الدكتور ابراهيم يوسف منصور ، طبع بغداد
٢٤ ـ الصحيفة السجادية ، الامام زين العابدين (ع) ؛ طبع طهران
٢٥ ـ الهدى الى دين المصطفى ، الشيخ محمد جوادالبلاغي ؛ طبع صيدا
٢٦ ـ الملل والنحل ، ابوالفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي بكراحمد الشهرستاني ، تحقيق محمد محمد سيد گيلاني ؛ طبع القاهرة

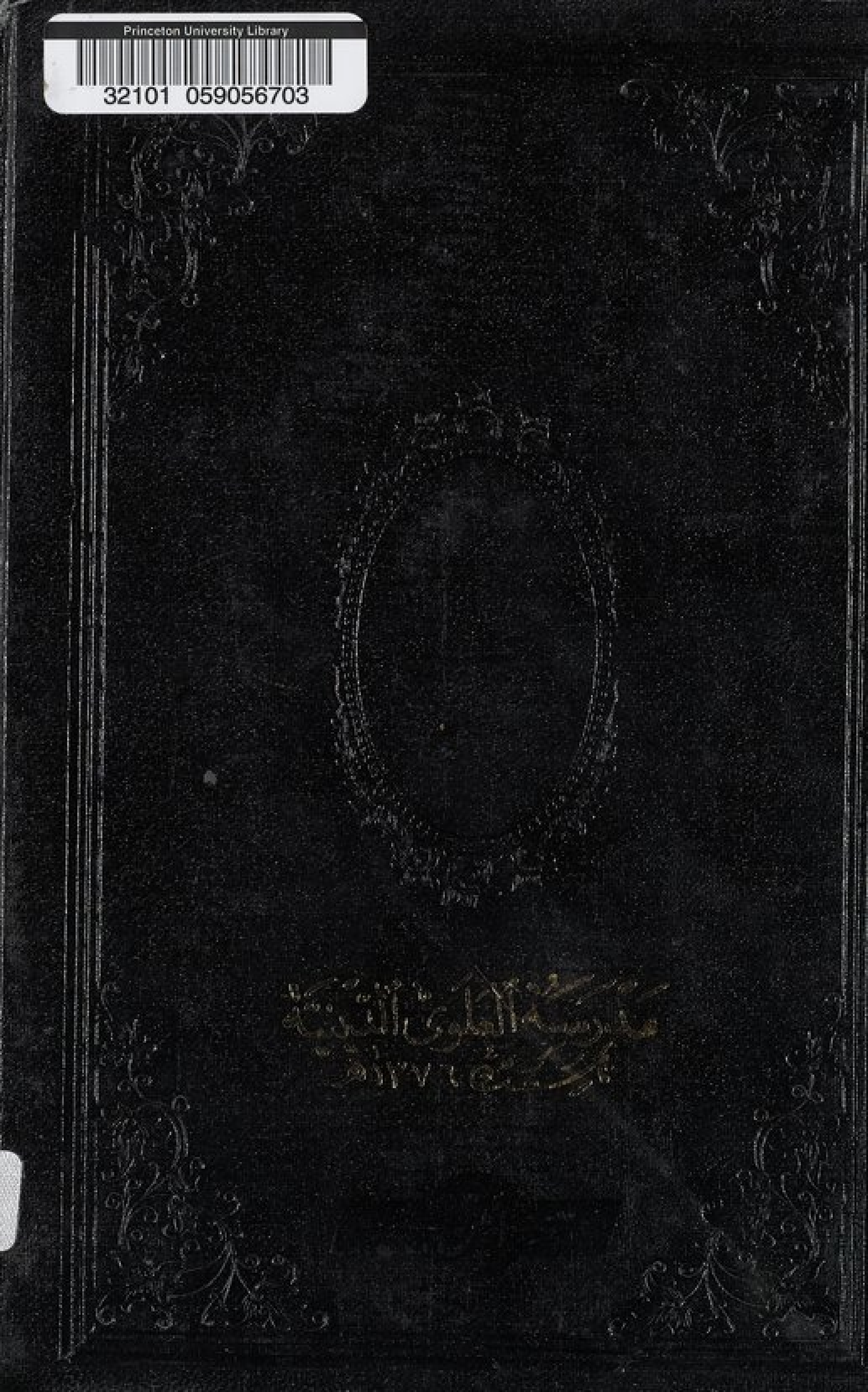
٥ ـ موضوعات الكتاب

(الفهارس)

شكر وتقدير

عملا بالقول « من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق » ؛ وان صح أن يشكر الانسان نفسه ، فاني اشكر وأقدم جزيل امتناني لاخي في الله الحجة الثبت السيد أحمد الحسيني حرسه الله تعالى على ماقام به من اشراف على طبع هذا الكتاب وقبله « مخطط كتاب الارث » وأخرجهما على أحسن مايرام بالرغم من كثرة مشاغله ؛ ولكن آثر وعمل ، خدمة للاسلام واخوة لي ؛ فجزاه الله جزاء المحسنين .

علي العلوي


Princeton University Library
32101 059056703